مارك توين

Telegram:@mbooks90

هل مات شكسبير؟

ترجمة: يوسف الشريف

تحرير: سهيلة دويدار

هل مات شكسبير؟

مارك توين

ترجمة: يوسف الشريف

تحرير: سهيلة دويدار

ريشة للنشر والتوزيع

Risha Publishing & Distribution

ريشة للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة: **حسين عثمان**

رئيس مجلس التحرير: **محمد توفيق**

الغلاف: **حسين جبيل**

التنسيق الداخلي: **تامر فتحي**

التدقيق اللغوي: **مصطفى حسين**

المدير الإداري: **سعيد حجازي**

الطبعة الأولى 2024

رَدمُك: 978-977-87146-9-2

رقْم الإيداع: 2024/13641

العنوان: 23ش البطراوي – عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة

التليفون: 201003888938+

البريد الإلكتروني: rishaegypt2020@gmail.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر
طبقًا لقوانين حفظ حقوق الملكية

لا يُسمَح بإعادة استخدام وطبع أو توزيع أي جزء من مادة الكتاب، مرئيًا أو صوتيًا، أو مطبوعًا، أو إلكترونيًا، دون إذن مُسبَق من الناشر.

الآراء الواردة في الكتاب تُعبر عن رأي مؤلفها، ولا تعكس بالضرورة رأي مؤسسة ريشة.

مقدمة المترجم

بعد انتهائي من كتابي «يوسف شاهين.. قصة وطن» «صادر عن دار ريشة 2024»، لفت انتباهي المكانة العالية التي وضع شاهين شكسبير بها، حيث اعتبر شاهين أن شكسبير أحد القديسين، أو العباقرة الخالدين الذين مرُّوا فوق ظهر هذه الأرض.

بالنسبة لي -وحتى قبل بدء كتاب شاهين- كنت قد قرأت بالفعل أهم أعمال شكسبير، وتأثَّرت للغاية بأعماله تلك، وبالتحديد «هاملت» و«الملك لير» و«روميو وجوليت»، وغيرهم من الأعمال الآسرة التي نُقِشت بعض مشاهدها في وجدان كل إنسان، قبل وجداني بشكل خاص.

بعد قراءة هذه الأعمال -وأعمال أخرى- قرَّرت البحث عن شكسبير، هذا المبدع والفنان الاستثنائي، لأعرف كيف تأثَّر شاهين به؟ وإلى أي مدى نقل شاهين أفكار شكسبير في أعماله؟!

وأول ما لَفت نظري هو العدد الهائل من الأعمال التي كتبها شكسبير، فقد كتب هذا الرجل عشرات المسرحيات، يصل عددهم -وربما يتجاوز ذلك- إلى الأربعين مسرحية، لا يُمكن أن تقول على مسرحية منهم إن لها قيمة فنية أقل من الأخرى، أو إن هناك مسرحية دون المستوى الفني المطلوب، بل إن هذه المسرحيات تم تقسيمها من قِبَل المُتخصصين لمراحل، لرَصد التطور الذي حَدَث في الأسلوب والتكنيك بالنسبة لكاتبها. وهي محل دراسة الأكاديميين، والمتخصصين بالشأن الأدبي منذ ظهورها، وحتى يومنا هذا، بل تُتَّخذ أعمال شكسبير مرجعيةً دراميةً ونقديةً.

كل هذا -وقبل أن أقرأ أي حرف آخر عن سيرة شكسبير- جعلني أتساءل: كيف كتب الرجل كل هذا؟ ومتى؟!

فشكسبير مات وهو في حوالَي الخمسين من عمره، وإذا افترضنا -دون أن

نقرأ سطرًا من سيرته الذاتية- أنه بدأ الكتابة وهو في حوالي العشرين من عمره، فهل هذا يعني أنه كان يُخرِج كل عام –على الأقل– نصّين بهذا البهاء والكمال؟

هذا دفعني لمواصلة البحث عن هذا الرجل المعجزة، وبين مئات المقالات التي من بينها قالوا إن شكسبير أسطورة لا وجود لها من الأساس، وَقَع في يدي مَقال يزعم أن شكسبير لم يكن هو كاتب مسرحياته، وأن من كَتَب هذه المسرحيات هو الفيلسوف والمفكر فرانسيس بيكون!

حاولت أن اقرأ مزيدًا عن هذا الموضوع، ووجدت أنه موضوع كبير، ودخلت في حلقة مفرغة من الجدل -الجدل العلمي- الذي نشأ بين المتخصصين والأكاديميين في العالم، لمعرفة من كاتب هذه الأعمال؟

ولأن الجدل الخاص ببيكون هو الأقرب للعقل وسط كل ما قِيل، قرّرت أن أواصل البحث في هذا الصدد، فوقع تَحت يدي هذا الكتاب شديد الأهمية، وشديد العذوبة في الوقت نفسه، الذي كتبه الأمريكي الشهير بلهجته الساخرة، والمُفكّرة أيضًا، مارك توين.

وقرّرت ترجمة هذا الكتاب، ولخصوصية اللغة التي يستخدمها توين، الشهير بصعوبة أسلوبه ولغته، لأنه يستخدم بعض المصطلحات الأدبية التي لا يستخدمها أحد سواه، استعَنت في تحرير الكتاب بالصديقة العزيزة – المتخصصة في تحرير الكتب المترجمة- سهيلة دويدار لتكون خَير مُعين لي في رحلة الترجمة الشاقّة.

وكان شغلي الشاغل طوال رحلة الترجمة، على الرغم من استمتاعي الكامل بالكتاب في أثناء القراءة والترجمة، هو الحِفاظ لأقصى درجة على اللغة واللهجة الساخرة الحادّة التي يستخدمها مارك توين، التي يمزجها وسط الكلام والحديث الهام والجاد، حتى أحافظ على أسلوبه الممتع، والجذاب؛ ليشعر القارئ أن هذا النص لم يُترجَم، وأن هذه هي لغته الأم.

وفي أثناء رحلة البحث عن بعض الجمل التي استخدمها توين في كتابه، وعن معناها، وجدت أن هذه هي مأساة كل من ينقل أو يترجم أعمال توين، إلى أي لغة غير الإنجليزية، لأن كل المواقع الخاصة بالقواميس اللغوية كانت تحتوي على أسئلة من بعض المترجمين عن معاني بعض الجمل والمرادفات التي يستخدمها هذا الأمريكي الساخر.

ليست الكلمات التي يستخدمها فقط في أثناء سرده، بل الكلمات الخاصة بالحِرف والمِهن والمدن والأماكن، مثل مِهنة البحارة، والمصطلحات التي يستخدمونها، وتلك المصطلحات التي يستخدمها المتخصصين بالتعدين، والبحث عن الذهب.

في الأخير، كانت رحلة الترجمة شاقة، ومُمتعة، وتحديًا كان لا بد من خوضه لشغفي الشخصي بمعرفة حقيقة هذا الجدل الناشئ حول كاتِب هذه الأعمال التي تأثَّرت بها للغاية، والتي تأثر بها العالم أجمع.

وبعد الانتهاء من قراءة الكتاب ثم ترجمته، اتَّضح لي أن شكسبير، بعيدًا عن الجدل الدائر عن كونه كاتب تلك الأعمال، أو لا، أو حتى إنه مجرد أسطورة لا وجود لها، شُعرت أن شكسبير –هذا الاسم المجرد في حد ذاته– يمكن أن يكون إشارة واضحة إلى غموض التاريخ الإنساني بشكل عام، الذي من الصعب معرفة حقيقة كل خفي فيه، هذا الكون الغامِض، المليء بالأسرار، وعلامات الاستفهام، التي تخلق المأساة، ليس فقط المأساة أو الدراما التي كتبها هذا الاسم –شكسبير أو غيره– أو ذاك، بل الدراما الكبرى، التي هي الحياة نفسها.

يوسف الشريف

الجمالية - القاهرة

مارس 2024

الفصل الأول

تتناثر هنا وهناك بين أكوام المخطوطات غير المنشورة التي تُشكّل سيرتي الذاتية المُذهلة ومذكراتي، فصول معيّنة سيتم العثور عليها في المستقبل، التي تتحدث عن «المُدّعين» -أبرز المُدّعين سيئي السمعة تاريخيًا: الشيطان مُدَّعٍ؛ العجل الذهبي مُدَّعٍ؛ «هاشم بن حكيم» المعروف بـ «المقنع الخرساني» أيضًا مُدَّعٍ، فقد أدّعى النبوة، «لويس السابع عشر» مُدَّعٍ، «ويليام شكسبير» مُدَّعٍ؛ «آرثر أورتون» مُدَّعٍ، «ماري بيكر إيدي» مُدّعية، والقائمة تطول.

بعضهم مُدَّعون بارزون، نجحوا في ادعائهم، ومنهم فاشلون بالطبع، بعض المُدّعين من النخبة، وبعضهم أيضًا من العوام، بعضهم أصحاب سِيَر مهذبة، وآخرون لا يملكون سوى سير مُهلَهلة، بعضهم يحصلون على الاحترام، وآخرون يتم احتقارهم، معروفون ولامعون كالنجوم المتلألئة هنا وهناك، ويظهرون بوضوح من خِلال ضَباب التاريخ والأساطير والقصص المتوارثة والتراثية، ويتم تناول سيرة كلٍّ منهم بشيء من الغموض أو الافتتان، ونحن نقرأ عنهم باهتمام شديد، ونناقش ما قدموه بحب، وأحيانًا بحقد، أو كره، حسب الجانب الذي نربط أنفسنا به.

Telegram:@mbooks90

هذا هو الأمر وطبيعة الجنس البشري، فقد استمع الناس إلى كل هؤلاء المدّعين، ولذلك يوجد حول كلٍّ منهم مجموعة كبيرة من الأتباع، بغض النظر عن مدى هشاشة ادّعاء بعضهم أو افتقاره الواضح للمصداقية، كان ادّعاء «آرثر أورتون» بأنه البارون «تيتشبورن» المفقود الذي عادَ للحياة مرة أخرى هشًا، مثل ادعاء السيدة «إيدي» بأنها كتبت «العلم والصحة»(1) بوحي وأمر من الإله؛ ومع ذلك، في إنجلترا منذ ما يقرب من أربعين عامًا، كان لـ«أورتون» جيشٌ عظيمٌ من الأتباع المُخلِصين له وما يدعيه، وعديد منهم ظلوا متمسّكين بعنادهم بعد أن ثبت أن إلههم البَدين مُحتال وسُجن بتهمة الحنث باليمين.

واليوم لا يزداد أتباع السيدة «إيدي» فقط من حيث أعدادهم، بل تزداد حماستهم وإيمانهم بأفكارها، مِن الذين صدقوا «أورتون»، بعض العقول رفيعة المستوى والمتعلمين والمثقفين، وكانت السيدة «إيدي» تحظَى بالشيء نفسه بين أتباعها منذ البداية، كنيستها مليئة بمثل هؤلاء مثل أي كنيسة أخرى، يُمكِن للمُدَّعين دائمًا الاعتماد على عدد من الأتباع، لا يهم مَن هُم، ولا ما يدَّعون به، ولا ما إذا كانوا يأتون بأشياء تثبت ادّعاءهم أم لا؟

هذه هي الحال من قديم الأزل، من الماضي البعيد الذي اختفى، وتلاشى مع مرّ العصور، إذا تمعَّنت، فلا يزال بإمكانك سماع الجماهير المؤمنة تهتف لـ«بيركين واربيك» و«لامبرت سيمنييل»، «اللذين حاوَلا قبل ذلك المطالبة بعرش إنجلترا، وادَّعَيَا أنهما ينتَمِيان للأسرة الحاكمة»(2).

أرسلَ لي صديق كتابًا جديدًا من إنجلترا بعنوان «إعادة طرح إشكالية شكسبير»، وقد تم إعادة صياغتها بشكل جيّد ومنطقي للغاية؛ وهذا يوقظ من جديد شغفي الذي استمر لمدة خمسين عامًا بهذا الأمر، بالرغم من أنه ظلّ خامدًا في السنوات الثلاثة الماضية، لقد وُلِد هذا الشغف من جديد من كتاب «ديليا بيكون» «الكاتبة الأمريكية والباحثة في أعمال شكسبير».(3) الذي اطّلعت عليه قبل ذلك بكثير، حوالي عام 1856، أو ربما 1857.

وبعد حوالي عام، نقلني قبطاني «بيكسبي»، بالباخرة الخاصة به إلى باخرة «بنسلفانيا»، ووضعني تحت أوامر «جورج إيلر» وتعليماته -المتوفى منذ سنوات عديدة- لقد قُدتُ وكنت على متن السفينة معه لعدة أشهر، وقفت كالحارس طوال النهار، وأحيانًا كنت أتولى عجلة القيادة وأحركها تحت الإشراف الصارم للقبطان، الذي كان لاعبًا بارعًا للشطرنج، ومُحِبًا وعاشقًا لشكسبير.

كان القبطان يلعب الشطرنج مع أي شخص -حتى معي- وقد بدا أن ذلك لا يتماشى مع هيئته الوقورة، وأيضًا -دون أن أطلب منه- كان يقرأ لي مقاطع

من أعمال شكسبير، ليس بشكل سريع وعابر، أو لِوَقت مُحدَّد، بل أحيانًا يظل يقرأ لي لساعات، تحديدًا عندما تكون نوبة حراسته، وأقود أنا السفينة، كان يقرأ بشكل جيد، ولكن لم يكن هذا مفيدًا بالنسبة لي، لأنه كان يتدخَّل أحيانًا بآرائه الشخصية في النص، وكان هذا يُفسِد اندماجي مع النص كله، فتبدو الكلمات أمامي معقَّدة، أو غير مفهومة، لدرجة أنه لو كنا نمُر بالسفينة وسط بعض الأمواج العالية أو الخطرة في النهر لم يكن بإمكان الشخص الذي يستمع للقبطان أن يميِّز إذا ما كان الكلام الذي يسمعه لشكسبير؟ أم لـ«إيلر»؟!

فقد كان يُردِّد جمل مثل:

«لو لم يكن هناك رجل يجرؤ، فأنا أجرؤ».

«اقترب، يجب أن تضعه تحت سيطرتك، يا لها من فكرة جهنمية!».

«خفِّف قبضتك، إنها تشبه أنثى الدب الروسي الخطرة، أو وحيد القرن المتوحِّش، واجهها، واجهها، ألا تعلم أنها ستشُم رائحة الشعاب المرجانية إذا تحرَّكت بهذه الطريقة، فستتبعك مثل النمر حينما يتربَّص بفريسته، ستمتحن أعصابك القوية إذا ما رأيته في الغابة».

«خذ أي طريق غير ذلك، وقف الميمنة، تحرك بالمركب بسرعة جهة اليسار، عد مرة أخرى إلى الميمنة، الآن إذن أنت بخير، استقم بالمركب وسِر بالمركب بشكل مباشر».

«لا ترتعش أبدًا، لا بد أن تَحيَا مِن جديد، وتستعيد نشاطك لتُكمل، ألا يُمكِن الابتعاد عن تلك الطبقة الدهنية المليئة بالزيت وسط الماء؟ فلتجعلها تهبط لأسفل، تجنبها بجسارة واجعلها تتلاشى».

«إذا كنت ترتعد خائفًا، فلتحكُم قبضتك في أثناء القيادة، فلتسِر فقط في الميمنة، اترك الجهة الأخرى وشأنها، لا تعترض كالطفلة الصغيرة».

«إنه الظل الرهيب هناك، أطلق ثماني إشارات تحذيرية، أطلق الجرس، انزل للأسفل واتصل بـ«براون» بنفسك».

«إنها سخرية غير حقيقية.. فلترحل».

في كل الأحوال، لقد كان قارئًا جيدًا، ومثيرًا للاهتمام، ويتحدّث بشكل انفعالي، ويستطيع وَصف المأساة والأحداث، لكنه أيضًا يمثل ضررًا بالنسبة لي، لأنني لم أتمكن منذ ذلك الحين من قراءة شكسبير بطريقة هادئة وعقلانية، لا أستطيع التخلص من طريقته المنفعلة في أثناء حَكْيه أو حديثه، فقد كان يتدخل معلقًا دائمًا في أثناء قراءة النص بأشياء لا علاقة لها بشكسبير مثل:

«ماذا تفعل بحق الجحيم! اسحبها للأسفل أكثر، فأكثر، والآن فلتسِر بشكل مستقيم».

وأيضًا بعض المقاطعات الأخرى التي كان يتفوّه بها في أثناء القراءة. عندما أقرأ شكسبير الآن؛ لا يزال يمكنني سماع صوت هذا القبطان بوضوح كما كنت أسمعه قبل ذلك بكثير، منذ حوالي خمسين عامًا لم أعتبر قراءة «إيلر» لي شيئًا مفيدًا، بل أضرني أكثر مما نفعني بهذه القراءة.

نادرًا ما كان تدخُّله في النص يُحسنه، ولكن باستثناء تلك التفاصيل، كان قارئًا جيدًا، يمكنني أن أؤكد هذا، من الممكن أحيانًا أن يروي أحد مسرحيات شكسبير دون أن يمسك بالكتاب، لقد حفظ أغلب أعماله كما يحفظ «إقليدس» جدول الضرب.

هل كان لدى هذا القبطان المولود في ولاية «ميسيسيبي»، الذي يعشق شكسبير شيئًا ليقوله، تحديدًا فيما يتعلق بالكتاب الذي كتبته «ديليا بيكون» عن شكسبير؟

نعم، لقد قال ذلك، كان يقول ذلك طوال الوقت، في وقت الحراسة بالصباح، وفي منتصف اليوم، وأيضًا من الممكن أن يُكرّر ترديد ذلك في أثناء نومه.

لقد كان يشتري الكتب النقدية، التي تناقش الأفكار الموجودة في الكتب المختلفة بشكل مُستمِر، كلما صدر كتاب في هذا الصدد، فهو أول من يشتريه، لنناقشه جميعًا طوال رحلتنا بالمركب في النهر، التي قد تصل إلى ألف وثلاثمائة ميل، تلك الرحلة التي كنا نقوم بها أربع مرات كل خمسة وثلاثين يومًا.

وطوال الوقت الذي تستغرقه هذه الباخرة السريعة في رحلة الذهاب والإياب، كنا نتناقش ونتحدث ونتجادل، في كل الأحوال كان يتحدث بشكل مستمر، وأقول أنا كلمة بين الحين والآخر، يدور الحديث في أوقات الفراغ وحتى أذهب للنوم.

كان يتحدّث بحرارة وحماسة، وكنت أرد عليه بين الحين والآخر بتحفُّظ، وكلمات قليلة، أعلم أنه لا يُحِب أن يطرد، أو يتم إلقاؤه من غرفة القيادة التي تقع على ارتفاع حوالي اثني عشر مترًا فوق سطح الماء.

إنه محبٌ بشدة لشكسبير، ومخلص له، ويحتقر بشدة كل ما قاله بيكون عن شكسبير، ويرفض كل ادّعاءات البيكونيين، «حيث يزعم هؤلاء أن الفيلسوف الإنجليزي، فرانسيس بيكون هو الذي قام بتأليف بعض المسرحيات والأعمال التي نشرت وحملت اسم شكسبير»(4).

قبل كل شيء، وفي البداية كان سعيدًا لأن هذا كان موقفي، ولكني أظن أن هذا الإعجاب أخذ يَقِل أمامي، ربما بسبب المسافة التي تفصل بين مكانته المَهيبة كقبطان، ومكانتي المتدنِّيَة، ولكني أدركت أن هذا الإعجاب تحوّل إلى مجاملة، مجاملة أشبه بكُرة ثلجية تدحرجت دون أن تذوب، وليس هناك احتمال في أن تثير غرور قبطان متدرّب حتى.

هذه المجاملة دفعتني لأكون أكثر تعصبًا لشكسبير -إن أمكن- وتحاملًا على بيكون.

وهكذا تحدثنا وتناقشنا في الموضوع نفسه، وكنا سعداء بهذا الحديث، الذي دار في فترة وجيزة قبل أن يبدأ الجو يتغيَّر، ويزداد برودة، ربما لو أن هناك شخصًا أكثر ذكاءً، فمن الممكن أن يفهم المشكلة مبكرًا، ولكنني رأيت المشكلة مبكرًا بما يكفي لكي أتمكَّن من التصرف بشكل عملي، فقد رأيت أنه كان ميّالًا للجدال، لذلك استغرق الأمر منه القليل من الوقت ليمل الحديث عن شكسبير، لأنه تحدث مع شخص يتفق معه في كل ما قاله، شخص لم يستفزه أو يعترض على أي حرف تفوّه به بخصوص الحقيقة الواضحة وضوح الشمس –هكذا كان يَصِف حقيقة الأمر كما رآها- هذا هو المبدأ الذي استخدمه كلما تحدث عن شكسبير، فهو في كل الأحوال في الجانب المنصف لشكسبير.

ولكن بعد ذلك، حدث الشيء نفسه الذي حدث لأكثر من شخص عندما يجدون أن مبدأهم يتعارض مع مصلحتهم، ويصبح عليهم الاختيار، لقد تركت المبدأ واخترت المصلحة، ليس بشكل كامل، ولكن فقط بما يكفي لِما أحتاجه لمواجهة هذا الأمر، وهذا يعني أنني اتَّخذت هذا الموقف، أي كنت مؤمنًا أن بيكون كتبَ بالفعل بعض أعمال شكسبير، لأنني أعلم أن شكسبير لم يفعل ذلك، وبالطبع كان «إيلر» غير راضٍ عن ذلك، واندلعت الحرب.

لقد مكَّنتني الدراسة والاطلاع -وبالطبع خبراتي- على اتخاذ موقفي الجديد –بدرجة كبيرة– على محمل الجد، وبعد قليل؛ وبكُل جدية، وحب وامتنان وإخلاص، ثم بكل شراسة لا هَوادة فيهما، لم أتخلَّ عن إيماني بالنتائج التي توصَّلت إليها بخصوص شكسبير، لدرجة بدَث وأنني مستعدٌ للموت من أجل هذا الإيمان الشديد بوجهة نظري، وكُنتُ أنظر بعَطف لا يخلوا من الازدراء إلى كل اعتقاد وإيمان عكس اعتقادي الشخصي، هذا الاعتقاد الذي فرَضَته عليّ المصلحة الشخصية في يومنا ذاك، وما زلت مؤمنًا باعتقادي نفسه حتى اليوم، وأجد فيه الراحة وشيئًا من العزاء، والسلام الذي يبدو أن لا نهاية له.

يُشبِه الأمر كما لو أنه إيمان ديني غريب كإيمان «مسيحي الأرز» «الذين آمنوا

بالمسيحية من أجل الحصول على منافع مادية، وليس لأسباب دينية»(5)، حيث يتمسّك المؤمن بمصالحه الشخصية، حتى ولو كان يسير وراءه ويتتبع خطواته المبشر شخصيًا، وبعد ذلك إذا تبقى شيء يمكن أن يعطيه للعبادة.

لقد قام «إيلر» بالرد على الكثير من آرائنا و«استدلالاتنا»، حتى ولو لم يكن ليرد على كل هذا بشكل جوهري ومؤثر، ولكن في كل الأحوال، كان لدى كل المؤمنين بما يؤمن به ويعبدون أفكاره نفسها شغفًا لاستدعاء هذا المصطلح الكبير، وهو «الاستدلال»، نحن الآخرون لا نسمي استنتاجاتنا أو آرائنا بأي اسم على الإطلاق، لأنها تظهر كما هي واضحة، ويمكن أن نتركها للعالم كما هي ليطلق عليها ما يشاء من اسم.

بين الحين والآخر، عندما كان «إيلر» يُضطر للتوقف عن الحديث بسبب السعال، كنت أستجمع مواهبي في التوصل للاستنتاجات، لأثير الجدل بنفسي حتى يصل إلى ذروته، دائمًا ما أحصل على ثمانية أقدام، أو ثمانية ونصف، وغالبًا تسعة، وأحيانًا حتى ربع أقل -كما كنت كـ «توين» أعتقد- ولكن دائمًا: «لا يوجد قاع»، كما قال، لقد تغلّبت عليه مرة واحدة فقط، لقد أغدَذت نفسي، لقد كتبت مقطعًا من أعمال شكسبير، ربما هو المقطع نفسه الذي اقتبسته قبل ذلك، منذ فترة، لا أتذكّر، وقارنته بتلك التدخلات الجامحة الخاصة بقبطان المركب، وعندما أُتيحت فرصة غير محفوفة بالمخاطر، وفي يوم صيفي جميل، وبعدما اجتزنا جزءًا خطِرًا من البحر يطلق عليه «2000 متر مربع من الجحيم»، وطفت السفينة وسارت بيُسر مرة أخرى، واستطاع أن ينجو بالباخرة «بنسلفانيا» منتصرًا دون أن تخدش، وبعد ذلك تبعنا قارب إنقاذ «إيه تي لاسي»، لكنه عَلِق في هذا الجزء الخطر، وعندما شعرت أن القبطان يشعر بالراحة والرضا، ولتسليته طلبت منه أن يقرأ النص الذي اقتبسته من شكسبير، طلبت ذلك بشكل دبلوماسيّ، كأنه هو الوحيد الذي يمكنه قراءة الشعر الدرامي.

وبينما هو يقرأ أثنيت على طريقته في القراءة، مفضلًا المجاملة، قائلًا إنه

قرأها بحماسة وحب بالغين، وأنه لن يستطيع أحد قراءتها بمثل هذه الطريقة مرة أخرى، لأنه كان يعرف كيف يضبط نبرة صوته مع كل جزء من النص، حتى يبدو الكلام خارجًا منه حاملًا روح شكسبير نفسه، وكل جزء يقرؤه يُعَد إلهامًا لا يُقدَّر بثمن، ولا يمكن أن يكتمل إلا حين يكمل قراءة الجزء الذي يليه.

انتظرت أسبوعًا لكي يتم نسيان الموقف؛ انتظرت لفترة أطول، انتظرت حتى طرح هو الاستدلالات الخاصة بموقفي وآرائي، تلك التي كنت مغرمًا ومؤمنًا بها، تلك التي كنت أقدِّرها أكثر بكثير من باقي الأفكار التي تملؤني، تلك الأفكار التي تشبه الذخيرة، والرصاصات، التي كان ملخصها، أن شكسبير لا يمكن أن يكون قد كتب أعماله، لأن الرجل الذي كتبها كان عالمًا بشكل كبير بالقوانين، والمحاكم، والطريقة التي يتحدث بها المحامين، والإجراءات القانونية، وطرق الدفاع، وإذا كان شكسبير بالفعل كان على تواصل مع قوى عُظمى، أو أحد النجوم التي تمده بهذه المعرفة، أو هناك سببٌ لا نعرفه هو الذي شكل هذه الثروة المعرفية الهائلة، فكيف حصل عليها؟ وأين؟ ومتى؟!

«مِن الكتب».

هذه هي الإجابة التي كنت أظن أنها الأقرب للحقيقة، ولكن قراءاتي للفلاسفة المؤمنين بضرورة الجدل، والنقد، علمتني أن الإنسان لا يستطيع التعبير أو التعامل بكفاءة وسهولة مع مصطلحات تخُص أي مهنة، ما لم يعمل هو شخصيًا في هذه المهنة، لأنه بالتالي سوف يرتكب أخطاء، ولن يحصل على ما يريد فعله، أو يعبر عنه يشكل سليم، وفي اللحظة التي لا يستطيع فيها التعبير عن مصطلح أو كلمة شائعة بين أصحاب هذه المهنة ومن يعملون فيها سيعرف القارئ، الذي يعمل بالفعل في المهنة نفسها أن الكاتب يكتب عن شيء لم يَمُر به ولا يعلم عنه.

لم يقتنع «إيلر»، وقال إن الإنسان يُمكِنه تعلُّم الأسرار الدقيقة ومعرفتها لأي مهنة من خلال القراءة والدراسة الدقيقة، ولكن عندما جعلته يقرأ مرة أخرى الجزء الخاص بشكسبير، وتعليقاتي عليه، أدرك بنفسه أن الطالب لا يمكن أن

يتعلم كل شيء يخُص البحر أو حركة الملاحة، لدرجة تجعله يستطيع التحدث عن هذه الأشياء أو الكتابة عنها في مسرحية بمهارة دون أن يرتكب خطأ يكتشفه القبطان الذي سيقرأ على الفور، كان هذا انتصارًا لي.

فقد صمت «إيلر» لفترة، وعرفت ما كان يحدث، وما يشعر به، كان يفقد صبره، وعرفت أنه سينهي الجلسة في أسرع وقت، بالحجة والأسلوب الذي استخدمه قبل ذلك، الذي لم أستطِع الرد عليه، لأنني خِفت، الحجة التي تقول إنني حمار، ومن الأفضل أن أصمت، وقد فعل هذا بالفعل.. وأطعته.

يا إلهي! كم مضى على ذلك وقتًا طويلًا، يا لها من فترة طويلة مُحزِنة، وها أنا ذا الآن شيخ، مكتئب، وحيد، وأحاول أن أحكي وأخرج تلك الحكاية مرة أخرى.

عندما يكون هناك رجلًا يُحِب شكسبير لدرجة كبيرة، فمِن الطبيعي أن يُحِب معه كُتابًا ومؤلفين آخرين، كان لدى «إيلر» عدة كتب ذات قيمة عالية في غرفة القيادة، وكان يقرأ الكتب نفسها لأكثر من مرة، ولم يهتم بقراءة الكتب التي تصدر حديثًا، أو التي تغير أسلوبها عن تلك الكتب القديمة، كان يعزف بشكل جيّد على الفلوت، ويستمتع كثيرًا بعزفه، وأنا أيضًا كنت استمتع، آمن أن صحته ستكون أفضل حين ينفرد بالفلوت في وقت راحته أو في الأوقات التي لا يقف فيها لقيادة السفينة، وهكذا عندما لا يكون في الخدمة يقضي جزءًا من وقت الراحة لينفرد به، وكان غالبًا ما يضعه على الرف الذي يعلو البوصلة، أسفل اللوحة الرئيسية للقيادة.

عندما انفجرت السفينة، وأصبحت مجموعة من الحطام والقطع التي تطفو وتحمل معها بعض الجرحى والمرضى والأرواح التي تحتضر -وكان من بينهم أخي الصغير «هنري»- كان القبطان «براون» يتولى الحراسة في الأسفل، مُراقبًا حركة الملاحة، وفي الغالب أظن أنه كان نائمًا، ولم يعرف قطُّ ما الذي قتله أو كيف مات؟ ولكن «إيلر» نَجا دون أن يصاب بأذى، حيث وصلت النيران إليه، وإلى غرفة القيادة التي كان بداخلها، فتآكلت الغرفة، وسقط في غرفة بها بعض

الأنقاض في الطابق الرئيسي، ووجد نفسه مستلقيًا فوق إحدى فتحات البخار التي لم تنفجر ولم يخرج منها النار، ولكنها كانت تَبُث كثيرًا من البخار الحارق، والقاتل، ولكن هذا لم يستمر لفترة طويلة، فقد تعلم من خلال خبرته الطويلة في الطرق التي يمكن أن يواجه بها الخطر كيف يمكن أن يتعامل مع الموقف، فوضع على أنفه طرفَ سترته، حتى لا يصل البخار السام إلى رئتيه، وشق طريقه، حتى وجد آلة الفلوت الخاصة به، التي يعزف عليها، ثم وبعد ذلك اتخذ تدابير لإنقاذ نفسه حيًا، ونجح.

بالنسبة لي؛ لم أكن على متن السفينة، كنت قد نزلت في «نيو أورليانز»، مع القبطان «كلاينفيلتر»، في كل الأحوال لقد رويت كل شيء عن هذا الأمر في كتاب بعنوان: «Old Times on the Mississippi»، وليس من المهم في كل الأحوال أن أحكي عنه هنا لمرة ثانية، لقد مضى وقت طويل جدًا على ذلك.

الفصل الثاني

خلال فترة دراستي في مدرسة الأحد منذ ما يقرب الستين عامًا، أصبحت مهتمًا بالشيطان، أردت معرفة كل شيء عنه، بدأت طرح الأسئلة، ولكن بدا لي أن السيد «باركلي» -المدرس المسئول عن فصلي الدراسي- دائمًا ما يتردد في الإجابة عن تلك الأسئلة، كنت أتوق دومًا لتلقي المديح عندما تتحوّل أفكاري لموضوع مُهِم للنقاش، في الوقت الذي لم يكُن هناك أي صبي يُمكن أن يقوم بفتح موضوع كهذا.

أثارت قصة حواء والحيَّة اهتمامي بشدة، واعتقدت أن ما أظهرته حواء من ثباتٍ نبيلٌ للغاية، وسألت السيد «باركلي»، إذا كان قد سمع من قبل عن امرأة لم تهرب وتختبئ خلف شجرة عند رؤيتها لحية؟ ولكنه لم يُجِب عن سؤالي، بل وبَّخني على السؤال عن أمور تفوق سني، أعتقد أن السيد «باركلي» كان ينوي إخباري بحقائق تتعلق بتاريخ الشيطان، لكنه لم يكْمِل، ولم يسمح بمناقشة هذا الموضوع.

خلال ذلك الوقت، كنا نظن أننا غطّينا جميع الحقائق، ولكن لم يكن هناك سوى خمسة أو ستة منهم فقط، حتى إنه كان بالإمكان كتابتهم على بطاقة زيارة أو ورقة صغيرة، أصابني الإحباط، كنت منهمكًا في كتابة سيرة كبيرة وكاملة، وحزنت للغاية عندما اكتشفت أنه لا توجد معلومات كافية، وبكيت حظي كثيرًا، مما أثار شفقة السيد «باركلي» وتعاطفه تجاهي، لأنه من أرق وأطيب الرجال الذين عرفتهم، حتى إنه ربت على رأسي وحاول مواساتي قائلًا إن هناك عددًا لا يحصى من المعلومات! ما زلت أشعر بالإثارة التي أصابتني بعد سماعي لتلك الكلمات.

وهكذا بدأ إخراج الدُرَر من المعلومات لتشجيعي وبعث البهجة في نفسي، كانت معظمها «افتراضات» -غير مدعومة بالأدلة- أن الشيطان كان في الأصل

ملاكًا في الجنة، ثم سقط بعد أن تمرَّد وشنَّ حربًا؛ فخسرها وحُكِم عليه باللعنة الأبدية، «لدينا أيضًا أسباب تجعلنا نعتقد» أنه قام بهذا وذاك، ولهذا «لدينا ما يبرر اعتقادنا» بأنه لاحقًا جابَ الكون، سعيًا وراء أشخاص يستطيع أن يُوقِع بهم، حتى إنه وبعد عدة قرون، وكما «ورد في التعاليم» أصبح شغله الشاغل إغراء البشر، دافعًا إياهم نحو الهلاك، لينتهي بهم الأمر نحو مصائر مختلفة ومرعبة، وبالتدريج، «حسب ما أشارت إليه الاحتمالات»، من المرجح أنه قام ببعض الأشياء، وقد يكون ارتكب أخرى، ومن المؤكد أنه فعل غيرها.

وهكذا، دوَّنا الحقائق الخمس التي عرفتها قبل ذلك على ورقة وكتبنا عليها «صفحة 1»، ثم قسَّمنا بعد ذلك ألفًا وخمسمائة صفحة إلى «افتراضات» و«اعتقادات» و«احتمالات» و«ظنون» و«حقائق مؤكدة» و«شائعات» و«تخمينات» و«ترجيحات» و«نظريات» و«ما يمكن اعتقاده» و«ما يُبرر اعتقادنا» و«أشياء يمكن أن تكون قد وقعت» و«ما حدث فعلًا» و«ما لا يدعو للشك» و«ما لا يشوبه شائبة»، يا للعجب!

معلومات؟ لماذا؟! لدينا بالفعل ما يكفي لكتابة سيرة عن شكسبير!

لكنه أجبرني على التوقف عن الكتابة، لم يسمح لي بكتابة تاريخ الشيطان، لماذا؟

لأنه، حسب قوله، لديه شكوكه، شكوك فيما يتعلق بموقفي فيما يتعلق بتلك المسألة، حيث إني لا أتصرف بوقار؛ فعلى الشخص الذي يكتب عن الشخصيات المقدَّسة أن يتحلَّى بالخشوع، وأضاف أن المُجتمع الديني يستهجِن أي شخص يتحدَّث عن الشيطان بأسلوب غير جاد، وسيتعرض للمُساءَلة والعقاب.

حاولت أن أطمئنه بكل صراحة وصدق، أنه قد فهم موقفي بشكل خاطئ تمامًا، وأني أحترم الشيطان للغاية، وأبَجِّله بقدر أي عضو من أعضاء أي كنيسة، وربما أكثر منهم، وأخبرته أنه يؤلمني بشدة أنه اعتبر كلامي سخرية من الشيطان أو

تحقيرًا أو استهانة وعدم احترام، وعلى الرغم من أنه في الحقيقة لم يرد على بالي أي من ذلك، لكن غمرتني رغبة في السخرية من هؤلاء والضحك، «هؤلاء؟» «لماذا؟ أصحاب «الاعتقادات» أو «الافتراضات» أو «الترجيحات» أو «ما كان يمكن أن يحدث» أو «ما حدث فعلًا» أو «ما لا يشوبه شائبة» و«من لديهم ما يبرر إيمانهم» وكل أولئك الموقرين مِمَّن أخذوا الحقائق الخمسة التي لا جِدال فيها، والحقائق غير المهمة وخلقوا منها شيطانًا من مَحض تخمينات بارتفاع ألف وستمائة متر».

ماذا فعل السيد «باركلي» حينئذ؟ هل تقهقر؟ هل فضل الصمت؟ لا، ظل مدهوشًا، حتى إنه ارتعد من أثر الدهشة، وقال إن مَن نقلوا تعاليم المسيح وحتى أصحاب «الاعتقادات» و«الافتراضات»، هم أنفسهم مقدسون، كقداسة أعمالهم، مقدسون للغاية، لدرجة أن من يجرؤ على الاستهزاء بهم أو السخرية من عملهم، فلا يستطيع بعد ذلك دخول أي منزِل محترم، حتى ولو من الباب الخلفي.

كان على حق فعلًا، وكان حكيمًا بحق، كم كنت سأكون محظوظًا لو أنصت إليه، لكن كنت صغيرًا، في السابعة من عمري، مختالًا وأهوج، أسعى فقط لجذب الانتباه، لقد كتبت بالفعل السيرة الذاتية، ولم يرحَّب بي في أي منزل محترم منذ ذلك الوقت.

الفصل الثالث

كم هو مثير للفضول والاهتمام هذا التشابه -فيما يتعلق بقِلّة تفاصيل السيرة الذاتية- بين الشيطان وشكسبير، إنه لأمر مُذهِل، فَريد من نوعه، تبدو وكأنها حالة شديدة الخصوصية، حيث لم يَقَع مُفارقة مثلها في التاريخ، ولا حتى في القصص الرومانسية، ولا يقترب منه شيء حتى في الأساطير والنواميس، يا لها مِن مكانة سامية التي يتمتّعان بها، عظيمة وشامخة! الاثنان العظيمان اللذان لا يعلم أحد عنهما كثيرًا، النجمان اللامعان، كلاهما يبدوَان وكأنهما من أكثر الأشخاص المجهولين الذين مرُّوا على سطح هذا الكوكب على الرغم من شهرتهما.

ولكي يعرف من لا يعرف؛ فسأقوم الآن بعمل قائمة بتلك التفاصيل من تاريخ شكسبير وسيرته، التي هي حقائق، حقائق مؤكدة، حقائق ثابتة، حقائق لا جدال فيها.

حقائق:

ولد في 23 أبريل عام 1564، لوالدين يَعمَلان في الزراعة، طيّبَين، لا يستطيعان القراءة أو الكتابة، أو حتى التوقيع أو كتابة اسمَيهِما.

نشأ في «ستراتفورد»، وهي بلدة صغيرة، كانت في ذلك الوقت غير معروفة ومُهمَلة، تسودها حالة من عدم النظافة، وتنتشر فيها الأمية بشكل كبير، حيث إنه من بين الـ 19 شخصًا المُهمّين المُكلّفين بإدارة البلدة، كان 13 شخصًا مِنهم يَبصُمون على الوثائق الهامة بدلًا من التوقيع، لأنهم لم يتمكنوا من كتابة أسمائهم.

لا أحد يعرف شيئًا عن 18 عامًا الأولى من حياته، إنها فترة مجهولة.

في 27 نوفمبر 1582، حصل ويليام شكسبير على مُوَافقة بالزواج من «آن

واتيلي»(6).

في اليوم التالي، تزوّج من «آن هاثاوي»، وقد كانت تكبُره بثمانِ سنوات، ولأن زواج ويليام شكسبير من «آن هاثاواي» حدث في عُجالة، وموافقة أُخِذت على مَضض، لم يتم نشر إعلان الزواج سوى مرة واحدة، وخلال ستة أشهر، وُلد الطفل الأول.

تلَا ذلك عامان فارغان على ما يبدو، لم يحدث خلالهما شيء يستحق أن يُذكر لشكسبير، وفي فبراير 1858 جاء التوأمان، ثم بعد ذلك عامان فارغان آخران.

ثم في 1587، قام بزيارة إلى لندن، وظل هناك عشر سنوات، تاركًا عائلته وراءه، تلا ذلك خمسة أعوام فارغة، لم يحدث له شيء خلال هذه الفترة يُذكر على حد علمنا.

ثم في 1592، كان يتم الحديث عنه باعتباره مُمَثِّلًا، في العام التالي 1593 ظهر اسمه في القائمة الرسمية للممثلين، وفي العام التالي 1594 لعب أحد الأدوار في حضور الملكة.

ملاحظة ليس لها أهمية: طوال الخمسة والأربعين عامًا –وهي فترة حكم الملكة– أدَّى كثير من الممثلين أدوارًا مختلفة أمام الملكة، ومع ذلك ظلوا مغمورين.

تلا ذلك ثلاث سنوات لطاف، أدى فيهم أدوارًا كثيرة، ثم في عام 1597 اشترى بيتًا جديدًا في «ستراتفورد»، تلا ذلك ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا من العمل الجاد، سنوات جمع فيها بين المال والشهرة، وعُرف كممثل ومسئول عن الفرقة، وفي الوقت نفسه؛ ارتبط اسمه –الذي يمكن كتابته أو تهجئته بأكثر من طريقة– بِعَدد من المسرحيات والقصائد العظيمة كمؤلف لها «على ما يبدو».

بعض هذه الأعمال، في تلك السنوات وما بعدها، تم تزويرها وقرصنت دون أن

يُقدّم شكسبير أي احتجاج، ثم -بين عامي 1610 و-1611 عاد إلى «ستراتفورد» واستقر هناك بشكل نهائي، وانشغل بزيادة ثروته، وأصبح يُقرِض بعض الناس المال، ويتبرع للكنيسة، ويتاجر في الأراضي والمنازل، كما تهرّب من دين قدره واحد وأربعون شلنًا إنجليزيًا، اقترضتهم زوجته خلال فترة ابتعاده الطويلة عن عائلته، وبالنسبة له، قام بمقاضاة بعض الناس الذين تخلّفوا عن دفع المال الذي اقترضوه منه، وذلك للحصول على المال، كما تمّت مقاضاته أيضًا لتخلفه عن دفع ما اقترضه، وتحالَف مع أحد جيرانه الذي حاول سرقة أو استغلال بعض الحقوق العامة لسكان المدينة، لكنه لم ينجح.

عاش خمسة أو ستة أعوام -حتى عام 1616- يستمتع بهذه الجهود التي حسبها من أجل أهداف سامية، ثم كتب وصية من ثلاث صفحات، كل صفحة موقعة باسمه.

كانت وصية رجل أعمال دقيق، حدّدَت بالتفصيل كل قطعة من الممتلكات التي يملكها في العالم من منازل، وأراض، وسيف، ووعاء مطلي بالفضة، وما إلى ذلك، وصولًا إلى «سريره المُفضّل الاحتياطي»، وأثاثه المنزلي.

وزّع ثروته بعناية وحساب دقيق بين أفراد أسرته، ولم يُغفل أي فرد منهم، ولم يستثنِ حتى زوجته، الزوجة التي تزوجها في عجالة بموافقة خاصة قبل أن يبلغ التاسعة عشرة، الزوجة التي ابتعد عنها لسنوات عديدة، الزوجة التي اضطرت إلى اقتراض واحد وأربعين شلنًا بسبب حاجتها، ولم يتمكّن المُقرِض من استردادها من الزوج الميسور، بل مات في النهاية دون الحصول على نقوده، لا، حتى هذه الزوجة ذُكِرت في وصية شكسبير، لقد ترك لها سريره المفضل الاحتياطي.

لقد ترك لها هذا «السرير الاحتياطي»، ولم يترك لها أي شيء آخر؛ ولو حتى فلسًا واحدًا ليساعدها في ترملها لتعيش هانئة، كانت هذه وصية رجل أعمال بشكل واضح وجلي، وليس شاعر، لم تذكر الوصية كتابًا واحدًا، كانت الكتب أكثر

قيمة بكثير من السيوف والأواني المطلية بالفضة والسرير الاحتياطي في تلك الأيام، وعندما كان شخص ما يموت ويمتلك كتابًا، كان يُخصَّص له مكانة مهمة في وصيته، لم تَذكُر الوصية مسرحية، ولا قصيدة، ولا عملًا أدبيًا غير مكتمل، ولا حتى مُسوَدّة مخطوطة من أي نوع أدبي، مات عديد من الشعراء فقراء، لكن هذا هو الوحيد في التاريخ الذي مات بهذا الفقر الأدبي؛ فقد ترك الآخرون وراءهم إرثًا أدبيًا، كتابًا، أو ربما اثنين، لو كان شكسبير يمتلك كلبًا -لكن ليس علينا الحديث في ذلك- نحن نعلم أنه كان سيذكره في وصيته، بالتحديد لو كان كلبًا جيدًا، ربما كتبه لـ«سوزانا»، ابنته؛ وإذا كان سيئًا، لكانت زوجته قد حصلت على حق الحصول عليه، أتمنى أن يكون لديه كلب، فقط لنرى كيف كان سيقسمه بعناية على أفراد الأسرة، بطريقته التجارية الدقيقة.

لقد وقع باسمه على الصفحات الثلاثة الذين شكلوا الوصية، ولكن قبل ذلك كان قد وقع على وثيقتين رسميتين آخرتين، لا تزال هذه التوقيعات الخمسة موجودة. وسوى ذلك لا توجد نسخ أخرى بخط يده. ولو حتى سطر واحد.

هل كان متحيزًا ضد الفن؟

كانت حفيدته التي كان يحبها، في الثامنة من عمرها عندما توفي، ومع ذلك لم تتلقَ أي تعليم، ولم يترُك لها أي أموال لتعليمها على الرغم من ثرائه، وحين كبرت وأصبحت أنثى ناضجة، لم تكن تستطيع الكتابة، ولا تستطيع أن تقرأ اسم زوجها، أو أي اسم آخر، أو أي كلام مكتوب، وربما اعتقدت أن أي كلمة مكتوبة هي لشكسبير.

عندما توفي شكسبير في «ستراتفورد»، لم يكن الأمر حدثًا جللًا، لم يُثِر موته ضجّة في إنجلترا أكثر من الضجة التي أثارها موت أي ممثل مسرحي آخر منسي، لم يأتِ أحد من لندن؛ ولم تكن هناك قصائد رثاء، ولا مديح في سيرته، ولا دموع صادقة لفقده، كل ما كان موجودًا ومسيطرًا آنذاك الصمت فقط، ولا شيء آخر.

هناك فارق كبير وواضح بين ما حدث حين توفي شكسبير، وحين توفي كاتب مسرحي إنجليزي آخر وهو «بن جونسون»، أو فرانسيس بيكون، أو «إدموند سبنسر»، أو «والتر رالي»، وغيرهم من الكتّاب والشعراء والشخصيات الأدبية البارزة في زمن شكسبير، لم يعلُ أي صوت لمديح مسيرة وآثار الشاعر المفقود شكسبير، حتى «بن جونسون» تأخّر سبع سنوات قبل أن يعلو المديح في سيرته.

وحسب المعلومات المتوفرة أن المدعو شكسبير القاطن بـ«ستراتفورد» لم يكتب مسرحية في حياته، بل حتى إنه لم يكتب قط رسالة لأحد في حياته، وحسب ما ذكر بعضهم أنه -وطوال حياته- لم يتلقَّ سوى رسالة واحدة فقط.

بقدر ما يعلم الجميع ويمكن إثباته أيضًا، أن المدعو شكسبير الذي عاش بـ«ستراتفورد» كتب قصيدة واحدة فقط خلال حياته، هذه القصيدة موثقة ومؤكّدة، لقد كتبها بالفعل، وهي حقيقة لا جدال فيها؛ لقد كتبها كاملة، لقد خرجت كاملة من نفسه، ومن مخيلته الشخصية، وقد أوصى بأن يُنقش هذا العمل الفني على قبره، وتم تنفيذ أمره، ولم تزل تلك الكلمات منقوشة على قبره حتى اليوم، وهذه هي الكلمات:

«إنه رفيق جيد، يسوع الذي جاء من أجل التسامح

من أجل هذه الرسالة الرفيقة المغلقة، اسمع:

لا تحفر! اترك الغبار المدفون هنا بسلام

طوبَى للرجل الذي يحفظ هذه الأحجار

واللعنة على من يزعج عظامي».

في كل ما سبق وقلناه -فيما يخص ميلاد شكسبير وحقائق حياته- ستجد كل حقيقة مؤكدة عن حياة شكسبير، على الرغم من قِلة وندرة هذه الحقائق، بخلاف هذه التفاصيل، لا نعرف شيئًا عنه، كل ما تبقى من تاريخه الطويل -حسب ما

تقدمه مختلف الكتب التي تحدثت عن سيرته الذاتية- مبني على التخمينات والاستنتاجات والنظريات والافتراضات، وكأنه برج إيفل -عالٍ ومهول- مبني من الافتراضات، يرتفع حتى يصل إلى السماء، بالرغم من أن أساسه ضعيفٌ وهش للغاية، ولا يستند على أدلة، أو أدلة غير منطقية، هذه هي الحقيقة.

الفصل الرابع
الافتراضات

يَفترض المؤرخون أن شكسبير التحق بالمدرسة المجانية في «ستراتفورد» منذ أن كان في السابعة من عمره حتى بلغ الثالثة عشرة، ولكن لا يوجد دليل مادي على التِحاقِه بالمدرسة على الإطلاق.

يستنتج المؤرخون أنه تعلّم اللغة اللاتينية في تلك المدرسة، المدرسة التي يفترضون أنه التحق بها، يفترضون أن الوضع المالي المتدهور لوالده اضطره لترك المدرسة -التي يُفترض أنه كان بها- وبدء العمل لمساعدة والديه وأطفالهما العشرة، ولكن بالفعل لا يوجد دليل على أنه دخل أو ترك المدرسة التي يفترضون أنه التَحَق بها.

يفترضون بالفعل أنه ساعد والده في مِهنته كجزّار، وبما أنه كان مجرّد صبي، لم يكن مضطرًا إلى القيام بذبح العجول الضخمة، بل فقط يشارك أو يساعد في ذبحها، كما يُقال إنه في كل مرة كان يذبح فيها عجلًا كان يُلقِي خطابًا رنَّانًا عليه، ويستند هذا الافتراض إلى شهادة رجل لم يَشهد بعينيه ذلك آنذاك، ولكنه سمع ذلك من رجل آخر من المحتمل أنه كان هناك برفقة شكسبير، لكن حتى هذا -الذي روَى ذلك- لم يَذْكر ما إذا كان مَن حكى له بالفعل هناك أم لا؟ ولم يفكر أي منهما في ذكر ذلك لعقود وسنوات بعد وفاة شكسبير، حتى أنعشت الشيخوخة، وتداعِي العقل، حيويتهما في استدعاء الذكريات.

لم يكن لديهما ولو حتى حقيقتَين عن المواطن المتميز الراحل، ولكن فقط حقيقة واحدة، أنه ذبح العجول، وألقى الخطب الرنانة بالقرب منهم بعد قيامه بذلك.

إنه أمر مُثير للفضول، يملكون حقيقة واحدة فقط، على الرغم من أن المواطن المُتميّز قضى ستة وعشرين عامًا في تلك البلدة الصغيرة، أي نصف عمره فقط،

ومع ذلك -عند النظر إليها بشكل صحيح- كانت أهم حقيقة، بل الحقيقة الوحيدة المهمة تقريبًا في حياة شكسبير طوال فترة إقامته في «ستراتفورد».

فعند النظر إليها بشكل صحيح، لأن الخبرة، والتجربة هما أهم ما يملك المؤلف، فالتجربة هي التي تضخ الروح والدم للكتابة التي يقدمها الكاتب، وتجعلها دافئة وصادقة.

وإذا ما نظرنا لتلك الرواية بشكل صحيح، فإن ذبح العجول يُفسّر مسرحية «تيتوس أندرونيكوس»، المسرحية الوحيدة -أليس كذلك؟- التي كتبها شكسبير على الإطلاق؛ ومع ذلك فهي المسرحية الوحيدة التي يحاول الجميع حرمانه من فكرة أنه كاتبها، بمن فيهم البيكونيين.

يعتقد المؤرخون أنه من المُبرر الاعتقاد بأن شكسبير الشاب؛ قام –بطريقة غير شرعية– بالصيد في محميات الغزلان الخاصة بالسير «توماس لوسي»، وبسبب ذلك وقف أمام القاضي، ولكن لا يوجد دليل واحد مؤكد يُثبِت حدوث أي شيء مِن هذا القبيل.

Telegram:@mbooks90

بعد أن جادل المؤرخون حول ما كان من الممكن أو المفترض أن يحدث وجعلوه حدثًا حقيقيًا وقع بالفعل، لم يجدوا مشكلة في تحويل السير «توماس لوسي» إلى شخصية السيد القاضي «شالو»، لقد أقنعوا العالم منذ زمن بعيد بالتخمين وبدون أدلة مَوثوقة بأن «شالو» هو السير «توماس».

الإضافة التالية لتاريخ شكسبير الشاب الساكن في «ستراتفورد» تأتي بسهولة، يَبنِيها المؤرخ على أساس سرقة الغزلان المفترضة، والمحاكمة المفترضة أمام القاضي، والسخرية المفترضة المدفوعة بالانتقام من القاضي في المسرحية، ونتيجة ذلك.. كان شكسبير الشاب جامحًا، منطلقًا، متهورًا، ومُخادِعًا للغاية، ومع الوقت يتم ترسيخ هذا الافتراء غير المبرر إلى الأبد!

إنها الطريقة نفسها التي قُمنا بها أنا والأستاذ «أوزبورن» ببناء الهيكل العظمي

الضخم للديناصور «برونتوصور»، الذي يبلغ طوله 18 مترًا وارتفاعه 5 أمتار، الموضوع في «المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي»، وهو مصدر إعجاب العالم بأسره، والهيكل العظمي الأكثر روعة على هذا الكوكب، كان لدينا تسع عظام، وقمنا ببناء بقية الهيكل العظمي الخاص بالديناصور من الجِص، لو لم يكن لدينا الجِص، لم نكن لنستطيع أن ننتهي من خَلق هيكل هذا الديناصور «برونتوصور» ليبدو عظيمًا هكذا، هذا الديناصور الذي يمكنه الجلوس بجوار شكسبير، ولا يستطيع أحد سوى خبير أن يميّز أي منهما أكبر أو يحتوي على الجِص أكثر.

صرّح شكسبير أن «فينوس وأدونيس» هي أولَى إبداعاته من القصائد، مما يعني على ما يبدو أنها كانت محاولته الأولى في التأليف الأدبي، كان مِنَ الأفضل ألا يَقُولَ ذلك، فقد كان مَصدرَ إحراج لمؤرّخيه لسنوات عديدة، عليهم أن يجعلوه يكتب تلك القصيدة الرشيقة والمهذبة والكاملة والجميلة قبل أن يهرب من «ستراتفورد» وعائلته -عام 1586 أو 1587- وعمره آنذاك اثنان وعشرون عامًا، أو نحو ذلك، لأنه في غضون السنوات الخمس التالية كتب خمس مسرحيات عظيمة، ولم يكن ليتمكّن من العثور على وقت لكتابة سطر آخر.

إنه أمر مُحرج للغاية، إذا بدأ ذبح العجول، واصطياد الغزلان، وتعلم اللغة الإنجليزية، في أقرب وقت ممكن -لنقُل في سن الثالثة عشرة، عندما كان من المفترض أن يترك تلك المدرسة، حيث كان من المفترض أن يتعلم فيها اللغة اللاتينية ليستخدمها في إنتاجه الأدبي في المستقبل- كانت يداه الشابتان مشغولتَين بمَهامٍّ أكبر بكثير من طاقتهما، لا بد أنه اضطر إلى التخلي عن تلك اللهجة التي يتحدث بها سكان بلدة «واركشاير» التي كان يتحدّث بها، غير المفهومة لمن يعيشون في لندن، وأصبح عليه دراسة اللغة الإنجليزية بجِدّية تامة، وباهتمام حقيقي؛ صعب بشكل لا يصدق تقريبًا، إذا كانت نتيجة دراسته للإنجليزية، هو ما ظهر في قصيدة «فينوس وأدونيس» من اللغة السهلة والعميقة والبليغة، في غضون عشر سنوات فقط، وفي الوقت نفسه تعلم أيضًا

رسم الشكل الأدبي الرائع والرفيع والفائق الذي يميزه.

ومع ذلك «يعتقد» أنه حقَّق كل هذا، بل أكثر من ذلك بكثير، حيث تعلَّم القانون وتعقيداته، والإجراءات المُعقَّدة في المحاكم، وكل شيء عن الجندية والملاحة، وعادات وتقاليد وأساليب البلاط الملكي والمجتمع الأرستقراطي، وبالمثل جمع في رأسه كل أنواع المعرفة التي كان يمتلكها المتعلمون آنذاك، وكل أنواع المعرفة البسيطة التي يمتلكها المتواضعون والجهلة، وأضاف إليها معرفة أوسع وأكثر تعمقًا بالإنتاج الأدبي العظيم، الذي قدَّمه الإنسان عبر التاريخ، سواء القديم أم الحديث، وهي أشياء لم يمتلكها أي رجل آخر في عصره؛ لأنه كان سيستخدم هذه الكنوز الرائعة، بطريقة مميزة، وسيستغل تلك اللحظات التي تعلم فيها كل هذه الأشياء، وتحديدًا عندما يصل إلى لندن.

ووَفْقًا لمن يعتقدون بذلك؛ فإن كل ما سبق ذكره، هو ما فعله، نعم، على الرغم من أنه لم يكُن هناك أحد في «ستراتفورد» قادرًا على تعليمه هذه الأشياء، ولم يكن هناك مكتبة في القرية الصغيرة تستطيع أن تُقدِّم له كل هذه العلوم، ولم يكن والده يعرف القراءة، وحتى هؤلاء الذين يعتقدون بكل هذا لا يفترضون أنه كان لديه مكتبة.

يعتقد كُتاب السيرة الذاتية أن الشاب شكسبير قد حصل على معرفته الواسعة بالقانون، ومعرفته الدقيقة والمألوفة بعادات وتقاليد المحامين وطريقة حديثهم، من خلال عمله ككاتب بمحكمة «ستراتفورد» لفترة من الزمن؛ تمامًا كما لو أن فتى ذكيًا مِثلي، نشأ في قرية على ضفاف نهر «المسيسيبي»، يُمكِن أن يصبح متمرِّسًا في معرفة صيد الحيتان في مضيق «بيرينغ»، ويستطيع أن يعلم الطريقة التي يتحدث بها المخضرمين عن هذه التجارة الخطيرة والمليئة بالمغامرات، وعن طريقتهم في اصطياد سمك «السّلور» في أثناء رحلة يوم الأحد، ولكن حتى هذا التخمين غير مُكتمل، لأنه لا يوجد دليل يؤكد على أن الشاب شكسبير كان كاتبًا لأي محكمة قانونية.

علاوة على ذلك، يُفترض أن الشاب شكسبير جمع كنوزه القانونية في السنوات الأولى من إقامته في لندن، من خلال «تسلية نفسه» بقراءة الكتب القانونية في غرفة نومه العلوية، والاستماع إلى حديث المحامين، ومعرفة بقايا الخبايا عن طريق التجول حول المحاكم، والاستماع لكل ما يدور هناك، لكنه مجرد تخمين؛ فلا يوجد دليل على أنه فعل أيًا مِن هذَين الأمرين، إن هذَين الافتراضَين ما هما إلا قِطعَتا جبس.

هناك أسطورة أخرى تقول إنه كان يحصل على قوت يومه عن طريق ربط الخيول ورعايتها أمام مسارح لندن، بالصباح وبالظهر، ربما فعل ذلك، وإن فعل ذلك؛ فقد قلّل بشكل كبير الساعات التي يقضيها في دراسة القانون، أو قراءة الكتب القانونية، والوقت الذي يقضيه متسكعًا حول المحاكم.

في تلك الأيام نفسها كان يكتب مسرحيات عظيمة، وبالتأكيد كان بحاجة إلى كل الوقت الذي يمكنه الحصول عليه، يجب إعدام، والتخلي عن أسطورة عمله في ربط الخيول؛ إنها تزيد بشكل كبير الصعوبة على المؤرخ في تفسير سعة إطلاع الشاب شكسبير، وهي سعة إطلاع كان يكتسبها، خطوة، خطوة، بصورة يومية، في أيام يملؤها الشقاء، ويفرغ حصاد كل يوم في كتاباته، وصنع الدراما الخالدة.

في الوقت نفسه كان عليه أن يكتسب معرفة حول أمور الحرب، ومعرفة أفراد الجيش، والبحارة، وطبيعة عملهم، وطريقة حديثهم؛ ومعرفة بعض البلدان الأجنبية ولغاتها، لأنه كان يُفرغ تيارات متدفقة من هذه المعارف المختلفة أيضًا في مسرحياته، فكيف اكتسب هذه المعارف التي لا تقدر بثمن؟

بالطريقة المعتادة –الافتراض- من المحتمل أنه سافر إلى إيطاليا وألمانيا وما حولهما، وأهّل نفسه لتصوير المناظر الطبيعية هناك والأوضاع الاجتماعية على الورق؛ وأنه –في طريقه- أتقن الفرنسية والإيطالية والإسبانية، وأنه شارك في رحلة قامت بها مدينة «ليستر» إلى البلدان المنخفضة(7)، كجندي أو مندوب أو

أي شيء آخر، لعدة أشهر أو سنوات -أو أي مُدة زمنية يحتاجها المفترِض- وهكذا أصبح على دِرايَة بالجُندية، وطرق حديث الجنود، وتصرفات القادة، والطريقة التي يدبرون بها أوامرهم، وفرق البحرية، وطريقة عيشهم، وحديثهم.

ربما فعل كل هذه الأشياء، لكني أود أن أعرف مَن الذي كان يقوم بربط الخيول ويرعاها في هذه الأثناء؟

ومن الذي قرأ الكتب في الغرفة؟

ومن الذي كان يتسكع مترفهًا حول قاعات المحاكم؟

ومن أيضًا، الذي عمل مساعدًا مسرحيًا وممثلًا؟

لأنه أصبح مساعدًا مسرحيًا، وبحلول عام 1593 أصبح «متشردًا» -وهو المصطلح الفظ الذي يطلق على الممثل غير المدرج في قائمة أي فرقة مسرحية- وفي عام 1594 أصبح عضوًا «منتظمًا» ومسجلًا بشكل صحيح ورسمي في تلك المهنة، التي لم يكن لها قيمة كبيرة في تلك الأيام ولم تحظَ باحترام كبير.

بعد ذلك بفترة وجيزة أصبح مساهمًا في مسرحَين، ومديرًا لهما، منذ ذلك الحين، أصبح رجل أعمال مشغولًا وغنيًا، وكان يجني المال بعزم ما أوتي من قوة لمدة عشرين عامًا، ثم في نوبة نبيلة من الإلهام الشعري كتب قصيدته الوحيدة - قصيدته الوحيدة، الأثيرة- وألقى بها ومات:

«إنه رفيق جيد، يسوع الذي جاء من أجل التسامح

من أجل هذه الرسالة الرفيقة المغلقة، اسمع:

لا تحفر.. اترك الغبار المدفون هنا بسلام

طوبَى للرجل الذي يحفظ هذه الأحجار

واللعنة على من يزعج عظامي».

ربما كان قد مات بالفعل قبل أن يكتب ذلك، ولكن بالرغم من كل شيء فهذا مجرد تخمين، ليس لدينا سوى أدلة لا يمكن اعتبارها إلا مجرد إشارات.

هل تريدني أن أسرد ما تبقَّى من الافتراضات والتخمينات التي تشكل سيرة ويليام شكسبير الضخمة؟

إنها تكفي لملء قاموس ضخم غير مُختصر، إنه ديناصور «برونتوصور» لا يحتوي هيكله الضخم إلا على تسع عظام، وستمائة برميل من الجص.

الفصل الخامس
يمكننا أن نفترض

حول هذه السيرة «المفتَرَضة»، يوجد ثلاثة أنواع وطوائف -منفصلين ومستقلين- من المؤمنين بكل هذه الافتراضات، أولهم من يطلق عليهم الـ «شكسبيريين»، ثم الـ «بيكونيين»، وأنا أنتمي إلى الطائفة الثالثة وهي الـ«برونتوصوريين».

يؤمن الشكسبيري أن شكسبير هو من كتب أعمال شكسبير، بينما يؤمن البيكوني أن فرانسيس بيكون هو مَن كتب أعمال شكسبير، أمّا «البرونتوصوري»، فلا يعلم حقًا من الذي كتب هذه الأعمال؟ ولكنه متأكد بارتياحٍ ورضا أن شكسبير لم يكن ليكتب هذه الأعمال، بينما يشُك بقوة في أن ربما بيكون هو مَن قام بذلك.

نضطر جميعًا إلى الافتراض كثيرًا، ولكني على يَقين تام تقريبًا أنه في كل حالة يُمكِنني تذكرها، كان المفترضون البيكونيون يتفوّقون على الشكسبيريين، يتعامل الطرفان كلاهما مع المواد نفسها، ولكني أرى أن البيكونيين يحصلون على نتائج أكثر منطقية وعقلانية وإقناعًا من تلك النتائج والحجج التي يتوصل لها الشكسبيريين.

يبني الشكسبيري افتراضاته وَفقًا لمبدأ محدد، وقانون دائم لا يتغير؛ وهو إننا إذا جمعنا الأرقام التالية: 2 و8 و7 و14 فسيصبح الناتج 165. أعتقد أن هذا خطأ، ولكن بغض النظر عن اعتقادي، لا يمكنك أن تجعل من أحد الشكسبيريين الغارقين في إيمانهم، أن يجمع تلك الأرقام بطريقة أخرى.

يختلف الأمر مع البيكوني، إذا وضعت أمامه الأرقام المذكورة أعلاه وطلبت منه أن يجمعها، فلن يحصل مطلقًا على رقم أكبر من 45، وفي حال أنه حاول جمعهم بعشرة طرق مختلفة، فسيحصل على الرقم الصحيح 31 في تسعة منهم.

سأحاول أن أشرح الفرق بين الطريقتين بأسلوب بسيط، وواضح، حتى يفهم الجاهل أو مُتواضِع الذكاء، سنفترض حالة، خُذ قطة صغيرة مدللة، وُلدت وتربَّت في المنزل، لا خبرة أو تعليم لها، الآن لنأخذ قطًا كبيرًا قويًا، جسده مليء بالندوب التي تحكي قصص تجاربه الطويلة والشاقة، هذا القط مُثقَّف وواسع الاطلاع لدرجة يمكننا القول بأنه يعرف كل شيء عن عالم القطط، وأخيرًا، لدينا فأر.

احبس الثلاثة معًا في غرفة مُحكَمة الإغلاق، لا يوجد بها شقوق ولا نوافذ ولا مخرج، انتظر نصف ساعة، ثم افتح الغرفة، ودع خبيرًا بأعمال شكسبير وآخر بأعمال بيكون يدخلَا ويحاولَا حل اللغز، الفأر اختفى، والسؤال الآن، أين هو؟ يمكنك تخمين الإجابتين مسبقًا.

سيقول أحدهما إن الفأر في بطن القطة الصغيرة، بينما سيقول الآخر بكل تأكيد إن الفأر في بطن القط الكبير.

أرجو أن يوضح هذا التشبيه الفرق بين الطريقتين بأسلوب بسيط ومفهوم.

حيث سيستدِل الشكسبيري بطريقة كهذه قائلًا:

«إن القطة ربما كانت تذهب إلى المدرسة عندما لم ينتبِه أحد، وبالتالي، فنحن نملك سببًا وجيهًا للاعتقاد بأنها فعلت ذلك، كما إنها ربما تكون قد تدرَّبت في مكتب كاتب محكمة عندما لم ينتبِه أحد، وبما أن ذلك كان ممكنًا، فنحن على حق في افتراض أنه قد حدث بالفعل، وكان بإمكانها دراسة عِلم القطط بغرفتها عندما لم ينتبه أحد، إذن فقد فعلت، وكان بإمكانها حضور أحاديث كبار القطط التي تشبه المحاكم على أسطح المنازل ليلًا على سبيل الترفيه، كل هذا عندما لم ينتبِه أحد، واكتسبت من خلال ذلك معرفة بإجراءات محاكم القطط ومصطلحات محامي القطط، كان بإمكانها أن تفعل كل ذلك، وبالتالي لا شك أنها هي التي أكلت الفأر، كان بإمكانها أن تذهب مع قبيلة محاربة عندما لم ينتبه أحد، وتعلم الحيل والأساليب العسكرية، وماذا تفعل بالفأر عندما تُتاح الفرصة، الاستنتاج

الواضح إذن هو أنها فعلت ذلك، بما أن كل هذه الأشياء المُتعدِّدة كان من الممكن أن تحدث، فإن لدينا كل الحق في الاعتقاد بأنها حدثت بالفعل. هذه المكاسب والقدرات الهائلة التي تم جمعها بصبر وجهد لم تحتج سوى إلى شيء واحد - الفرصة- لتُحَوِّل عملها هذا إلى عمل انتصار خالد، جاءت الفرصة، ولدينا النتيجة؛ لا شك أن الفأر في جوف القطة».

الجدير بالذكر أنه عندما نزرع نحن الثلاثة المنتمين للمذاهب المختلفة عبارة «نعتقد أنه من المحتمل» في عقولنا، فَمِن المُتوقَّع، عندما نصب كامل تركيزنا عليها ونحاول إثباتها بكل الطرق الممكنة، أن تنموَ وتتحول إلى عبارة قوية وصلبة، وتقاوم العوامل الخارجية مثل: «لا مجال للشك»، وهذا يحدث عادة.

ونحن نعلم أن حكم صاحب عقيدة بيكون سيكون:

«لا يوجد دليل قوي على أن القط تلقَّى أي تدريب أو تعليم أو خبرة تؤهله للموقف الحالي، أو أنه مجهَّز لأي إنجاز يتجاوَز شرب الحليب الموضوع أمامه، ولكن هناك أدلة وفيرة -بل دليل دامغ في الواقع- على أن الحيوان الآخر مُجهَّز ومؤهل للقيام بأكل الفأر، فبلا شك أن القِط الذَّكر هو من يوجد الفأر بداخله الآن».

الفصل السادس

عندما تُوفي شكسبير عام 1616، كانت الإنتاجات الأدبية العظيمة المنسوبة إليه كمؤلف قد عُرضت على جمهور لندن، ولقيت استحسانًا كبيرًا لمدة أربع وعشرين عامًا، ومع ذلك، لم يكن موته حدثًا جللًا، لم يُحدث ضجة ولم يلفت أي انتباه، على ما يبدو، لم يُدرِك معاصروه البارزون في الأدب أن كاتبًا وشاعرًا شهيرًا قد فارقهم، ربما علموا أن ممثلًا مسرحيًا ثانويًا قد اختفى، لكنهم لم يعتبروه مؤلفًا لتلك الأعمال التي حملت اسمه، ولنا الحق في افتراض هذا.

لم يكن موته حتى حدثًا في بلدة «ستراتفورد» الصغيرة، هل يعنى هذا أنه لم يكن يُعتبر من المشاهير بأي شكل في «ستراتفورد»؟

بكل تأكيد لدينا الحق في أن نفترض، لا -نحن مضطرون إلى الافتراض- لطالما كان ذلك هو الوضع، لقد أمضى أول اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عامًا من حياته هناك، وبالطبع كان الجميع هناك يعرفون بعضهم بعضًا، بما في ذلك الكلاب والقطط والخيول، قضى السنوات الخمسة أو الستة الأخيرة من حياته هناك، يُتاجِر بجدية في كل شيء كبير أو صغير، لطالما يأتي بالنقود.

لذلك نحن مضطرون إلى افتراض أن عديدًا مِن الناس الذين كانوا هناك في تلك الأيام الأخيرة عرفوه وتعاملوا معه بشكل شخصي، والباقي سمعوا عنه، ولكن في كل الأحوال، هل يتم التعامل معه كشخص مؤثر؟

على ما يبدو أنه لا، لأن الجميع سرعان ما نسوا تذكر أي تعامل معه، أو أي فعل قام به.

العشرات من سكان البلدة، الذين ما زالوا على قيد الحياة، والذين من المفترض أنهم عرفوه أو سمعوا عنه في أول اثنين وعشرين عامًا من حياته، كانوا جميعًا لا يتذكرونه، فإذا كانوا يعرفون أي شيء يتعلّق بحياته وقع في هذه الفترة، فهم لم يتحدثوا بشأنه، هل كانوا ينتظرون أن يسألهم أحد؟ من المرجّح، ولكن هل سألهم

أحد بالفعل؟ مِن الواضِح أن ذلك لم يحدُث، لم يتم توجيه أي سؤال إليهم؟ من المرجح جدًا أن لا أحد هناك أو في أي مكان آخر كان مهتمًا بمعرفة ذلك.

لمدة سبع سنوات بعد وفاة شكسبير، يبدو أن لا أحد كان مهتمًا به، ثم نُشرت الرباعية(8)، واستيقظ «بن جونسون» من لامبالاته الطويلة وكتب قصيدة ثناء ووضعها في مقدمة الكتاب، ثم حلَّ الصمت مرة أخرى.

ومرت ستون عامًا، ثم بدأ البحث في حياة شكسبير بـ«ستراتفورد»، وبدأ مع سكان تلك البلدة الصغيرة، ولكن هل هؤلاء الأشخاص عرفوا شكسبير أو شاهدوه؟ لا، بعد ذلك، هل سُئِل سكان «ستراتفورد» الذين شاهدوا أشخاصًا عرفوا أو شاهدوا أشخاصًا شاهدوا شكسبير؟ لا.

على ما يبدو، لم تتم التحقيقات إلا مع سكان «ستراتفورد» الذين لم يرَوْا شكسبير، أو عاشوا في زمنه، وما يعرفوه لم يصل إليهم إلا من أشخاص لم يروا شكسبير، وما قالوه لا يمكن اعتباره حقيقة، بل مجرد أسطورة، أسطورة باهِتَة وغير محددة؛ أسطورة بدأت حياتها الأدبية من الخطب الرنانة فوق جثث العجول المذبوحة، ولا تستحق التذكر سواء بشكل تاريخي، أم أسطوري خيالي.

هل حدث من قبل -أو منذ ذلك الحين- أن شخصًا مشهورًا قضى نصف عمره الطويل بالضبط في القرية نفسها التي وُلد وترعرع فيها، كان قادرًا على التسلل خارجًا من هذا العالم، تاركًا من خلفه تلك القرية في حالة من الصمت، ولا وجود فيها للثرثرة التي ستندلع بعد رحيله؟ مجرد صمت تام، بلا ولو حتى همهمة؟ أو ثرثرة؟ لا أعتقد أن هذا حدث في أي حالة أخرى باستثناء شكسبير، ولكن الأمر ليس كما نَظُن، وحتى في حالته، لا يمكن أن يحدث ذلك الصمت لو كان يُعتبر من المشاهير وقت وفاته.

عندما أتأمل حالتي الشخصية -ولكن دعونا نفعل ذلك أولًا- ونرى ما إذا كان يمكن أن تُظهر بعض من الأمور التي يُحتمل جدًا أن تحدث، وأن تؤدي إلى

النتيجة المتوقعة، التي نسبة حدوثها عالية جدًا، بالتحديد لأننا أمام شخص مشهور، يحبه الناس ويفعل الخير، مثلي.

عندما كان عمري عامين ونصف، انتقلت مع والديّ إلى قرية «هانيبال» بولاية «ميزوري» على ضفاف نهر «المسيسيبي»، دخلت المدرسة في سن الخامسة، وتنقّلت بين عدة مدارس في القرية لمدة تِسع سنوات ونصف، ثم توفي والدي وترك عائلته في ظروف صعبة للغاية، لذلك توقفت رحلتي التعليمية للأبد، وأصبحت صبيًا يتدرب في مهنة الطباعة مقابل المَأكل والمَلبس، وعندما لا أحصل على الملابس، أحصل على كتاب تراتيل بدلًا من الملابس الجديدة في الصيف، عِشت في «هانيبال» لمُدّة خمسة عشر عامًا ونصفًا بالضبط، ثم هربت، وفقًا لعادة الأشخاص الذين ينوون أن يصبحوا مشهورين، لم أعِش هناك مرة أخرى بعد ذلك.

وبعد أربع سنوات، أصبحت «متدربًا» على مَتن سفينة تِجارية تتحرك في نهر «المسيسيبي» بين «سانت لويس» و«نيو أورلينز»، وبعد عام ونصف من التدريب الشاق، والعمل الجاد، قام مُحقّقو الولايات المتحدة بالتحقيق معي عن كثب عبر جلستَين طويلتَين، وقرّروا أنني أعرف كل شِبر من نهر «المسيسيبي» -ألف وثلاثمائة ميل- في الظلام والنهار، تمامًا كما يعرف الطفل طريقه إلى ثَدي أمه بالليل والنهار، لذلك منحوني رخصتي كقبطان -منحوني لقب فارس، إذا جاز التعبير- وترقّيت لأكون موظفًا مسؤولًا في حكومة الولايات المتحدة.

إذن؛ تُوفي شكسبير في سن الشباب، لقد كان في الثانية والخمسين من عمره، عاش في قريته الأم ستة وعشرين عامًا، أو شيئًا من ذلك، مات وهو مشهور «إذا كنت تصدق كل ما تقرأه في الكتب». ومع ذلك، عندما مات، لم ينتبه أحد هناك أو في أي مكان آخر إليه، ولم يتذكر أي من أهل البلدة بعد ستين عامًا شيئًا ليقولوه عنه أو عن الفترة التي قضاها في «ستراتفورد».

عندما جاء الباحث أخيرًا، لم يحصل إلا على حقيقة واحدة -لا، أسطورة-

وحصل عليها من مَصدر غير مباشر، مِن شخص لم يسمع بها إلا من إشاعة، ولم يقل إنه من قام بتأليفها، لأن ذلك لم يكن مُمكِنًا حقًا، لأن تاريخ وجود هذه الحقيقة سَبَق تاريخ ميلاد من روى تلك الحكاية نفسه.

ولكن بالضرورة، كان لا يزال هناك عددًا من الأشخاص على قيد الحياة في «ستراتفورد» ممن شاهدوا شكسبير كل يوم تقريبًا في الخمس سنوات الأخيرة من حياته، وقد كانوا آنذاك في أيام شبابهم، وكانوا قادرين على إخبار الباحث ببعض الأشياء المباشرة عنه، لو كان في تلك الأيام الأخيرة شخصية مشهورة بالفعل، وبالتالي شخصية تستطيع أن تُثير اهتمام القرويين، لماذا لم يبحث عنهم ويجري معهم مقابلة؟ ألم يكن ذلك يستحق الجهد؟ ألم يكن الأمر ذا أهمية كافية؟ هل كان لدى الباحث موعد لمشاهدة قتال للكلاب ولم يستطع توفير الوقت؟

يبدو لي أن هذا كله يعني أنه لم يحظَ قط بشهرة أدبية، لا هناك ولا في أي مكان آخر، ولم يكن يتمتَّع بسَمعَة كبيرة كممثل ومدير.

الآن بعد أن تقدَّمت بي السن، وقد تجاوزت الثالثة والسبعين من العمر فعليًا، ما زال ستة عشر من رفاقي في مدرسة «هانيبال» على قيد الحياة، ويمكنهم أن يخبروا -وهم يتحدثون بالفعل- الباحثين بعشرات وحتى مئات الأحداث عن فترة شبابنا التي قضيناها معًا، أشياء حدثت لنا في مطلع حياتنا، في زهرة شبابنا، في الأيام الجميلة، الأيام العزيزة، «الأيام التي كنا نتسكع فيها منذ زمن طويل»، ومعظم هؤلاء جديرون بالثقة بالنسبة لي أيضًا.

هناك طفلة كنت أغازلها عندما كانت هي في الخامسة وأنا في الثامنة، تعيش في «هانيبال»، وقد زارتني الصيف الماضي، بعد أن اجتازت مسافة ألف أو ألف ومائتي ميل اللازمة من خط السكك الحديدية دون أن ينفد صبرها، أو تقل حماستها المعروفة من وقت الشباب.

وتوجد فتاة صغيرة أخرى كنت أهتم بها في «هانيبال»، عندما كانت في التاسعة وأنا كنت في مثل عمرها آنذاك، ما زالت على قيد الحياة حتى الآن، تعيش في لندن، ومعافاة تمامًا، مثلي بالضبط.

وعلى تلك السفن القليلة الباقية على قيد الحياة، تلك الأشباح والذكريات الباقية للسفن العظيمة التي كانت تبحر في النهر الكبير في بداية رحلاتي البحرية -التي يعود تاريخها إلى الماضي تمامًا مثل تاريخ حياة شكسبير بالكامل- لا يزال من المُمكِن العثور على اثنين أو ثلاثة من قباطنة النهر الذين كانوا هناك وأنا أقوم بأشياء جديرة بالثناء في تلك الأيام القديمة، وعديد مِن المهندسين ذوي الرؤوس البيضاء، وعديد مِن عمال التخزين والمساعدين، وعديد مِن العمال الذين كانوا موجودين على ظهر السفينة، الذين اعتادوا على أن يرفعوا لي المقدمة، لتتحرك وتُبحِر السفينة، وإرسال الإشارة التالية:

«أقل مِن ستة أقدام!».

وكل ذلك كان يحدث بالليل، وسط الهواء المنعش، الذي كان يجعلني أرتجف، والصوت الذي ينادي:

«مارك توين!».

ثم بعد قليل أسمع صوتًا ينادي:

«على عمق أربعة أقدام».

كل هؤلاء يعلمون عني كثيرًا، ويمكنهم أن يتحدثوا، وهذه هي الحال بالنسبة إلى من يعملون بالطباعة من «سانت لويس» إلى «نيويورك»، وكذلك الأمر مع مراسلي الصحف، من «نيفادا» إلى «سان فرانسيسكو»، وكذلك الأمر مع الشرطة، لو كان شكسبير مشهورًا حقًّا مثلي، لكان بإمكان «ستراتفورد» أن تقول عنه أشياء كثيرة، ولو حدث ذلك معي، لكانوا قد فعلوا ذلك بالتأكيد.

الفصل السابع

لو كان لدي قدرة على فتح مجال للنقاش، لتحديد ما إذا كان شكسبير قد كتب أعماله أم لا؟ أعتقد أنني سأطرح على من أناقشهم سؤالًا واحدًا فقط:

«هل كان شكسبير يُمارس مهنة المحاماة؟».

ولن أطرح بعد هذا السؤال أي سؤال آخر.

يزعم بعضهم أن الرجل الذي كتب المسرحيات لم يكن مُتعدِّد المواهب فحسب، بل كان أيضًا مُتعدِّد الإنجازات؛ فهو لم يعرف فقط آلاف الأشياء عن الحياة البشرية بكل تنوعاتها ومستوياتها، ولم يلم فقط بمئة نوع من الفنون، والحِرَف والمِهَن، حتى اليدوية المختلفة التي يعمل بها البشر، ولكنه أيضًا يستطيع التحدث عن الناس، بمختلف طبقاتهم ومِهَنِهم بدقة، دون ارتكاب أخطاء.

ربما يكون الأمر كذلك؛ ولكن أأبدى الخبراء رأيهم أم أن هذا مجرد كلام عام؟ أيَعتمد هذا الرأي المطروح على تعميمات واسعة وفضفاضة وبليغة -والتي لا يمكن اعتبارها كدليل أو إثبات- أم على تفاصيل ومعلومات محددة وإحصاءات وأمثلة توضيحية؟

لم يشهد خُبراء لهم سلطةٌ، أو رأي لا يمكن التشكيك فيه، إلا على أداةٍ من الأدوات التي استخدمها شكسبير في كتاباته المُتنوِّعة، بحسب ما أتذكّر من الأحاديث التي تُدار عن شكسبير وبيكون، التي يدور أغلبها حول استخدامه التفاصيل القانونية.

لا أذكر أن «ولِنتِنجتون» أو «نابليون» قد فحصَا ودرسَا المعارك التي كتبها شكسبير، وخططه واستراتيجياته، ثم حكما وأكّدَا بشكلٍ نهائيٍ على خُلوِّها من العيوب العسكرية، لا أتذكر أن أيًا من «نيلسون» أو «دريك» أو «كوك» فحصوا

مهاراته في الإبحار وأعلنوا أنه على دراية عميقة ودقيقة بهذه المهنة، لا أتذكر أن أي ملك أو أمير أو دوق شهد على كمال شكسبير في تعامله مع آداب البلاط الملكي وكلام الطبقة الأرستقراطية وأسلوبهم، لا أتذكر أن أيًا من اللاتينيين أو الإغريقيين أو الفرنسيين أو الإسبانيين أو الإيطاليين المرموقين اعتبروه أستاذًا متمكنًا في تلك اللغات، لا أتذكر -حسنًا، لا أتذكر أن هناك شهادةً- شهادةً مُهقةً، شهادةً مَهيبةً، لا تُدحض ولا تُهاجِم أيًا من التخصصات المئة، الكثيرة التي ألمَّ شكسبير بها، باستثناء تخصص وشيء واحد، هو القانون.

مع مرور الزمن، تتغيَّر أشياء أخرى، ولا يستطيع الطالب أن يتتبَّع على وَجْه اليَقِين التغييرات التي شهدتها عديد من الحِرَف وعملياتها وتقنياتها على مدى قرن أو قرنين، ومعرفة ما كانت عليه تلك العمليات والتقنيات في تلك الأيام السابقة، أمَّا القانون، فهو مختلف، فهو مُحدَّد المَعالم، وموثَّق بالكامل منذ البداية، ولدى خبير هذه المهنة الرائعة والمتشابكة والمعقدة –القانون- طُرق محددة لمعرفة ما إذا كان استخدام شكسبير للقانون صحيحًا أم لا؟ وما إذا كانت إجراءات المحكمة المذكورة صحيحة أم لا؟ وما إذا كان مصطلحاته القانونية هي مصطلحات ممارس مُخَضْرم أم مجرد تقليد تم اكتسابه وجمعه من الكتب ومن التسكع حول المحاكم الموجودة بـ«وستمنستر»؟!

خدم «ريتشارد هنري دانا» لمدة عامين على السارية قبل أن يُصبِح بحارًا، ويمتلك كل تجربة يُمكِن أن يكتسبها البحّار حتى قبل أن يمارس المهنة، تتدفَّق لغة البحارة من قَلَمه بلمسة يقينية وسهولة وثِقة مِن شخص عاش ما يتحدث ويكتب عنه، ولم يجمعه من الكتب والاستماع العشوائي.

فلترَ هذا الجزء الذي كتبه:

«بعد رفع مقدمة المركب من المرسى، وحل وثاق حبل ربط الشراع، والتأكد من تثبيت حافة كل شِراع بواسطة الرافعة، مع وجود رجل على كل سارية، وبأمر، تم تحرير جميع أشرعة السفينة، وبأسرع ما يمكن فُردت هذه الأشرعة،

ترفع المرساة وتصبح السفينة تحت السيطرة، وتتقدم».

وفي قطعة أخرى نقرأ:

«تحرَّكت السفن الملكية كلها دفعة واحدة، وتحرك أفراد العائلة المالكة، وانتصبت أشرعة المراكب الملكية في وجه السماء، وبما أن الرياح كانت تهب علينا بحرية وبقوة، فقد نفِدَت أذرع التطويل، وكان الجميع نشطاء كالقطط، مستلقِين فوق ظهر المركب أو يعملون على أذرع الرافعة، ويربطون ويثبتون حركة الشراع، هكذا، شراعًا تلو شراع، ويشرف القبطان على هذا، حتى أصبحت المركب وكأنها مُغطَّاة بالقماش، وبدت أشرعتها كسحابة بيضاء كبيرة تستقر على بقعة سوداء».

ومرة أخرى نقرأ تلك القطعة التي تصف أحد المغامرات في المحيط الهادئ:

«كانت سفينتنا المقاومة في أفضل حالاتها، بعد تجاوزنا النقطة المحددة، أصبحت الرياح أقوى، ومالت تلك السواري الملكية مع الأشرعة، لكننا لم ننزِعْها أو نتعامل معها حتى رأينا ثلاثة بحارة يجهزون أشرعة السفينة «كاليفورنيا»، عندها طَوَينا جميع الأشرعة مرَّة واحدة، ولكن مع أوامر من القباطنة بالبقاء بالقرب من تلك الأشرعة، وتحريرها، وفكها مرة أخرى عندما نتلقى الكلمة المحددة التي بمثابة إشارة للفك، كان منوطًا بي طيّ الشراع الأكبر والضخم الموجود أمامي؛ وبينما كنت أقف لإعادة تحريره، بدا أمامي منظر رائع، من مكاني، بدتا السفينتان كأنهما مجرد سوارٍ وأشرعة، بينما ظهر سطحيهما الضيقَين، بعيدًا في الأسفل، تميل بقوة الرياح في الأعلى، وكأنها بالكاد قادرة على دعم الأقمشة الكبيرة الموضوعة عليها، كانت السفينة المعروفة باسم «كاليفورنيا» تُواجه رياحًا أقوى، وكانت مجهزة بكل الإمكانيات، ومع ذلك؛ قدمنا لها الدعم حتى تسير بثبات وسط الرياح، وبمجرد أن بدأت الرياح تهدأ، سبقتنا قليلًا، وأُعْطيَ الأمر بتحرير الأشرعة الرئيسية الضخمة، وفي لحظة تم تحريرها وانفردت، «شد الأشرعة الملكية الأمامية!»، «الشراع الأمامي للطقس»، «الشراع

الأمامي لمواجهة الرياح»، «ارفع بعيدًا يا سيدي»، هكذا يصرخ من يقف في الكابينة، «تحقق من حبالك»، يصرخ مساعده.. «نعم، سيدي، كل شيء واضح»، «أبقِها مشدودة، ثبت، قوس مشدود في اتجاه الريح»، «اسحب بإحكام باتجاه الريح، ثم يتم ضبط الأشرعة الضخمة».

ماذا سيقول قبطان أي سفينة شراعية في عصرنا على ذلك؟ سيقول بالتأكيد: «الرجل الذي كتب هذا لم يتعلم تفاصيل مهنته من كِتاب، لقد عاش ورأى ذلك بالفعل»!، ولكن هل سيتمكن القبطان نفسه من الحكم على مهارة شكسبير البحرية؟ مع الأخذ بعين الاعتبار التغييرات التي طرأت على السفن ولغة البحارة، والتي لا محالة حدثت خلال الثلاثمائة عام الماضية، ولم تدوَّن ولم تُذكر واختفت تمامًا؟

أنا مقتنع تمامًا بأن لغة البحارة عند شكسبير ستكون غامضة عليه تمامًا، مثل لغة شعب «تشوكتاو» -السكان الأصليين لأمريكا- على سبيل المثال، في مسرحية «العاصفة»:

السيد: يا قبطان! يا قبطان!

القبطان: نعم يا سيدي، ما الأمر؟

السيد: بخير، «تكلم مع البحارة»: أسرعوا في العمل، وإلا فسوف نتحطم على الصخور؛ تحركوا، تحركوا.

يدخل البحارة.

القبطان: هيا يا رفاقي، افرحوا، افرحوا يا رفاقي، بسرعة، بسرعة، اسحبوا شراع القمة، انتبهوا لصفارة السيد، أنزلوا شراع القمة، بسرعة، بسرعة، أنزلوا، وجهوها حتى نستخدم الشراع الرئيسي، اقتربوا، اقتربوا، ارفعوا الشراعين الرئيسيين، انطلقوا إلى البحر مرة أخرى؛ وجهوها بعيدًا.

هذا يكفي، في الوقت الحالي، دعونا نلهو قليلًا الآن، من أجل تلطيف الأجواء، لو أن رجلاً كتب كتابًا وجعل فيه إحدى شخصياته تقول:

«هنا، أيها الشيطان، افْرِغْ الحروف الرصاصية داخل الألواح والحجر الكبير في صندوق الجحيم، اجمع المكونات حول الإطار ودعهم يتنافسون على اللقطات وكن سريعًا بشأنها».(9)

فسأعرف خطأ أو اثنين في الصياغة، وسأعلم أن الكاتب كان محترفًا نظريًا وليس عمليًا.

لقد كنتُ أعمل في مناجم «الكوارتز» «وهو نوع من تعدين الذهب»(10) في رحلات البحث عن المعادن، وهي مهنة وحياة صعبة إلى حد ما، ولكني أعرف كل مصطلحات المهنة والكلمات المتعلقة بها، أعرف كل شيء عن تفاصيل رحلات الاكتشاف، وحتى الأشياء الهامشية في الموضوع، أعرف كل شيء عن العروق الرئيسية للمعدن، والحواف والنتوءات والانخفاضات، والأدوات، والزوايا، والأعمدة، والأنفاق، ومستوى الميل الخاص بالأنفاق، وفتحات التهوية، والعربات التي تجرها الخيول، وبطانات الطين، وبطانات الجرانيت، ومجموعة المصانع التي تأخذ هذا المعدن، وطاحونة «Arrastra» «لِطَحن خام الذهب والفضة وسحقهما»(11) وكيفية شحنها بالزئبق وكبريتات النحاس، وكيفية تنظيفها، وكيفية تنظيف «الملغم» أو بقايا سحق الذهب والفضة العالقة في أجهزة التقطير، وكيفية صب السبائك في القوالب، وأخيرًا، أعرف كيف يتم فحص وغربلة المخلفات، وأيضًا كيف أبحث بين هذه المخلفات عن الأشياء الأقل صلابة.

أنا أعرف مصطلحات صناعة تعدين «الكوارتز» وتكريره عن قرب، وعلى هذا النحو، كلما أدخل الكاتب والشاعر الأمريكي «بريت هارت» هذه الصناعة في قصة، وفي المرة الأولى التي يفتح فيها أحد عماله فمه، أدرك من صياغته أن

«هارت» عرف كل هذا فقط من الاستماع، وأنه لا يعرف شيئًا عن هذا العالم، مثل شكسبير -أقصد رجل «ستراتفورد»- الذي لم يخُضِ التجربة، لا يمكن لأحد أن يتحدَّث بلغة من يعملون في التنقيب عن «الكوارتز» بشكل صحيح دون أن يعرف كيف يتم استخدام المِغول والمجرفة والحفر والصهر.

لقد عمِلت بالتنقيب السطحي، وتحديدًا في التنقيب على الذهب، وأعرف كل أسرار تلك المهنة، وكلما تحدث «هارت» عن تلك المهنة في إحدى القصص، فإني أعلم من أسلوبه، والطريقة التي تتحدث بها شخصياته أنه لا هو، ولا شخصياته، عَمِلوا بهذه المهنة على الإطلاق.

كما عملت بالتنقيب الجيبي(12) عن الذهب، وهو نوع من التنقيب -حسب ما أعلم- لا يوجد إلا في مكان واحد صغير في العالم، وأعلم كيف أجِد بالقرن والماء مسار الجيب وأتبعه خطوة خطوة، ومرحلة مرحلة، حتى أتوصل إلى مصدره بالجبل، حيث أجِد هناك العش الصغير المُكتظّ بالمعدن الأصفر، الذي يبدو راقدًا في مأواه السّرّي أسفل الأرض، وأعلم المصطلحات المستخدمة في تلك الحرفة، تلك الحرفة الساحرة التي تسعى للكشف عن الكنز المدفون، ولذلك أستطيع أن أمسك بأي كاتب، يُفكر في الكتابة عن هذه المهنة، وهو لم يعمل بها، أو يتعلمها بعرق جبينه وعمل يديه.

أنا أعرف عديدًا من الحرف الأخرى التي يتحدَّث بها أصحاب كل حرفة، وكلما حاول شخص التحدث بلغة مُحدَّدة لأي حرفة دون تعلمها من مصدرها، يمكنني كشفه دائمًا قبل أن ينطق أو يتفوه بمزيد.

لذلك -كما سبق وذكرت- إذا طُلِب مني الإشراف على النقاش الدائر حول شكسبير وبيكون، فسأختصر الأمر في سؤال واحد -وهو السؤال الوحيد- بقدر ما أطلعني عليه الجدل السابق، حيث شهد خبراء بارزون ذوو كفاءة لا تشوبها شائبة: هل كان كاتب أعمال شكسبير محاميًا؟ محاميًا مطلعًا، وذا خبرة لا حدود لها؟!

سأستبعد التخمينات والافتراضات والاحتمالات والممكنات والضروريات والتبرير المُحتَمَل، وبقية الأشباح والظلال والأشياء الغامضة، وأتوقَّف أو أمضي، أنجح أو أفشل، بناءً على الحكم الذي تتوصل إليه هيئة المحلفين بشأن هذا السؤال الوحيد، إذا كان الحكم بنعم، فسأشعر بالاقتناع التام بأن شكسبير من «ستراتفورد»، الممثل والمدير والتاجر الذي مات مغمورًا، منسيًا، معدومًا حتى من مكانته القروية، لدرجة أنه بعد ذلك بستين عامًا لم يتذكر أي زميل ومواطن له من أيامه الأخيرة أن يخبرنا بأي شيء عنه، لم يكن هو من كتب الأعمال.

في الفصل التالي -«شكسبير المحامي»- سأتحدَّث عن تلك المشكلة التي تخُص شكسبير، ولكن بعمق، ومعاد صياغتها، ويتضمن ملخصَ حوالي خمسين صفحة من شهادات الخبراء ومضمونها، مع تعليقات عليها، ولكن سأقوم بكتابة الصفحات التسع الأولى فقط التي قالها هؤلاء الخبراء، لأنني أرى أنها كافية في حد ذاتها لحسم السؤال الذي أعتبره المفتاح الرئيسي لحل لغز شكسبير وبيكون.

الفصل الثامن
شكسبير المحامي

تُقدّم مسرحيات شكسبير وأشعاره أدلة كثيرة على أن مؤلفها لم يكُن على معرفة واسعة ودقيقة بالقانون فحسب، بل كان على دِرايَة جيدة بآداب أعضاء المحاكم والحياة القانونية وعاداتهم بشكل عام.

«بينما يرتكب الروائيون والمسرحيون باستمرار أخطاء فيما يتعلق بقوانين الزواج والوصايا والميراث، فإن القوانين التي يشرحها شكسبير باستفاضة، لا يمكن الطعن فيها ولا يمكن ألا نضعها بعين الاعتبار، ولا يمكن نقضها».

هذه هي الشهادة التي أدلَى بها أحد أبرز المحامين في القرن التاسع عشر، الذي رُقّيَ إلى منصب المستشار العام أو المستشار الأعلى لبريطانيا العظمى عام 1850، ولا شك أن المحامين وحدهم هم من يستطيعون كشف جهل كل من يتحدث عن القانون دون دراسة، عندما يحاول استخدام المصطلحات القانونية أو مناقشتها.

كتب اللورد «كامبل»:

«لا يوجد شيء أكثر خطورة من أن يتلاعب شخص ليس من أهل المهنة بزملائنا المحامين».

من المؤكد أن الشخص العادي سيكشف عن نفسه باستخدام تعبير لا يستخدم أبدًا في دوائر المحامين.

السيد «سيدني لي» نفسه يزودنا بمِثال على ذلك، حيث كتب:

«في 15 فبراير 1609، حصل شكسبير على حُكم من هيئة محلفين ضد «أدينبروك» لدفع حوالي ستة شلنات كغرامة، الآن لن يتحدث محامٍ أبدًا عن الحصول على «حكم من هيئة محلفين»، لأن وظيفة هيئة المحلفين ليست

تقديم الحكم «وهو من اختصاص المحكمة»، ولكن العثور على حكم بشأن الوقائع، الخطأ في الواقع بسيط، ولكنه مجرد واحد من تلك الأشياء الصغيرة التي تمكن المحامي على الفور من معرفة ما إذا كان الكاتب شخصًا عاديًا أم «من أهل المهنة».

لكن عندما يجرؤ شخص عادي على الخوض بعُمق في موضوعات قانونية، فمِن الطبيعي أن يُظهر عدم كفاءته، وجهله بتلك الأمور التي يتحدث فيها، يقول اللورد «كامبل» مرة أخرى:

«دع الرجل غير المتخصص في هذه المهنة، مهما كان ذكيًا، يتجرأ على التحدث في القانون أو استخراج الأمثلة من العلم القانوني لمناقشة موضوعات أخرى، وسوف يقع بسرعة في موقف سخيف ومثير للضحك».

وماذا يقول المحامي البارز نفسه عن شكسبير؟ يقول إنه كان لديه: «معرفة تقنية عميقة بالقانون»، و«معرفة واضحة ببعض أكثر الإجراءات غموضًا في القانون الإنجليزي»، وفي موضع آخر يقول: «كلما استرسل في الحديث عن هذا الأمر، توصل إلى الحديث بشكل سليم ومُتَّسِق».

ويقول عن الجزء الثاني من مسرحية «هنري الرابع» لشكسبير:

«إذا كان يُفترض أن «اللورد إلدون» «المستشار الأعلى لبريطانيا العظمى آنذاك» كتب المسرحية، فلا أرى كيف يمكن اتهامه بنسيان أو إغفال أي قانون هام في أثناء كتابتها».

يتحدث «تشارلز» و«ماري كودين كلارك» عن: «الطريقة الرائعة التي يتحدّث بها عن المصطلحات القانونية، واستخدامه المتكرّر لها في التوضيح، ومعرفته التقنية الغريبة بشكل هذه القوانين وتأثيرها».

كتب «مالون» وهو محامٍ آخر:

«معرفته بالمصطلحات القانونية ليست مجرد شيء يمكن اكتسابه من خلال الملاحظة العابرة، إنها تبدو وكأنها مهارة عملية».

يقول «ريتشارد جرانت وايت»، محامٍ آخر وشخصية معروفة عن شكسبير:

«لم يستخدم أي كاتب مسرحي في ذلك الوقت، ولا حتى «بومونت» -الابن الأصغر لقاضي المحكمة العامة- الذي تخلّى عن القانون مقابل المسرح بعدما درس القانون وعمل في المحاكم، العبارات القانونية بسهولة ودِقَّة كما استخدمها شكسبير، وتعزز أهمية هذه الحقيقة حقيقة أخرى، وهي أنه فقط في لغة القانون يظهر هذا الاتجاه، العبارات الغريبة للمِهن الأخرى تخدمه في مناسبات نادرة لأغراض الوصف أو المقارنة أو التوضيح، وعادة ما تُوحي بشيء ما في المشهد، لكن العبارات القانونية تَنبع من قلمه كجزء من مفرداته، وجزء من تفكيره».

على سبيل المثال، خُذ كلمة «النفوذ»، التي يمكن استخدامها في الواقع على أنها «استخدام المنصب» أو «إعطاء رشوة»، ولكنها تنطبِق في القانون على جميع الطرق القانونية للحصول على الممتلكات باستثناء الميراث أو النسب، وبمعنى قانوني فريد تَجِد هذه الجملة بمختلف تنوعاتها أكثر من خمس مرات في أعمال شكسبير الأربعة والثلاثين، ولكننا في المقابل لا نجد هذه التعريفات والمرادفات سوى مرة واحدة في كل المسرحيات التي كتبها سواء «بومونت» أم «فلاتشر»، التي يبلغ عددهم أربعًا وخمسين مسرحية.

وقد قيل إنه تعلّم مفرداته القانونية في أثناء حضوره لبعض جلسات المحاكم في لندن، لكن هذا الافتراض لا يُفسّر ولا يُبرّر حرية شكسبير ودقّته الفريدتين في استخدام تلك المصطلحات، وبراعته في استخدامها، وعندها تُصبِح فِكرة تعلم كل تلك المصطلحات القانونية -التي يُعد استخدامها الأكثر لفتًا للنظر- فكرة صعبة للغاية؛ لأن الأمر لا يقتصر على الكلمات والمصطلحات التي كان يسمعها في الإجراءات العادية في محاكم الدرجة الأولى، ولكن استخدامه لمصطلحات أخرى أعمق لا تقال في تلك الجلسات، مثل تلك التي تشير إلى

حِيَازة أو نقل الملكية العقارية، «غرامة واسترداد»، «حق الدائن»، «شراء»، «عقد تمكين»، «حيازة»، «إيصال مزدوج»، «ملكية مطلقة»، «مزرعة إيجار»، «المبلغ المتبقي»، «حق استرداد الملكية»، «إسقاط حق الملكية».. إلخ.

لم يكن من الممكن التقاط مصطلحات القانون العقاري هذه بالتسكُّع حول محاكم القانون في لندن قبل مائتين وخمسين عامًا، عندما كانت الدعاوى القضائية المتعلقة بملكية العقارات نادرة نسبيًا، وإلى جانب ذلك، يستخدم شكسبير هذه المصطلحات القانونية بحرية تامة في مسرحياته الأولى، التي كتبها في سنواته الأولى في لندن، كما يستخدم أيضًا هذه المصطلحات في تلك المسرحيات التي كتبها في فترات لاحقة، وفي كل الأحوال يكتب عنها بالدقة نفسها؛ لأن الدقة والمهارة اللتين استخدم بهما هذه المصطلحات قد أثارَتَا إعجاب رئيس المحكمة العليا والمستشار العام».

كتب السيناتور «ديفيس»:

«يبدو أن لدينا شيئًا أكثر من مجرد محاولة لاستخدام المصطلحات عن جهل، فلن يتم العثور على أي شذوذ أو خطأ قانوني، حيث يتم توظيف العناصر والمرادفات الأكثر صعوبة في القانون العام داخل السياق، ويتكرَّر ذلك في أكثر من موضع، حيث تكون هذه المعرفة لافِتَة للنظر تحديدًا بالنسبة للكُتاب الذين لم يدرسوا القانون، ولكن يظهر شكسبير على أنه مُتمَكِّن منها تمامًا، سواء في قانون الملكية العقارية، وقواعد حيازتها ونسبها، وتداولها وغراماتها أو استصلاحها، وقسائمها وضماناتها الملتبسة، وأيضًا على دِرايَة بإجراءات المحاكم، وطريقة إحضار المذكرات والاعتقالات، وطبيعة الدعاوى، وقواعد الرد، وقانون الهروب وازدراء المحكمة، وعلى دراية أيضًا بمبادئ الأدلة التقنية والفلسفية، في التمييز بين المحاكم الزمنية والروحية، وقوانين الإدانة والمصادرة، وفي ومتطلبات الزواج الصحيح، وفي افتراض الشرعية، وتعلم قانون الامتيازات، وأيضًا قوانين السلطة والحكم، والتاج الملكي، يظهر هذا التمكن في استخدام تلك المعرفة

بشكل مدهش».

كل هذه شهادات، ولكن هناك مزيدًا من الشهادات التي لم أذكرها، ولكن يمكن الآن إضافة شهادة محامي عظيم من عصرنا، ألا وهو السير «جيمس بلاستيد وايلد»، الحائز على لقب مستشار الخزانة عام 1860، الذي تمت ترقيته إلى منصب قاضي القضاة، والمسئول عن محاكم الوصايا والطلاق عام 1863، والمعروف للعالم باسم «اللورد بنزانس»، الذي حصل على هذا اللقب في عام 1869.

كما يعلم جميع المحامين، وكما شهد المحامي الراحل السيد «إندرويك»، كان «اللورد بنزانس» أحد أهم رموز السلطات القانونية في عصره، حيث اشتهر بـ «فهمه المتميز للمبادئ القانونية»، و«موهبته الفطرية في جمع الحقائق والتعبير الواضح عن آرائه».

يتحدث «اللورد بنزانس» عن «معرفة شكسبير الكاملة، ليس فقط بمبادئ القانون الإنجليزي وقواعده البديهية وأعرافه، بل أيضًا بإشكالياته ودقائقه، وهي معرفة مثالية ودقيقة لدرجة أنه لم يُخطئ قَطُّ، أو يمكن أن يُلام على إغفاله شيئًا، كانت الطريقة التي استُخدمت بها هذه المعرفة في خدمة التعبير عن معناه وتوضيح أفكاره شيئًا غير مسبوق، يبدو أنه كان يستمتع بشكل خاصّ بإتقانه الكامل والسريع لها في جميع فروعها وكافة نواحيها، ولذلك، فإن هذه المعرفة القانونية والتعلم اللذين تجلّيا في المسرحيات لهما طابع خاص يضعهما على أرضية مختلفة تمامًا عن باقي المعارف المتنوعة التي تَظهر في كل صفحات المسرحيات التي كتبها. فعند كل منعطف ونقطة، يحتاج فيها المؤلف إلى استعارة أو تشبيه أو مثال، يتجه عقله دائمًا أولًا إلى القانون، ويبدو أنه كان يفكر تقريبًا بعبارات قانونية، وكانت أبرز التعبيرات والمرادفات القانونية الشائعة دائمًا في متناول قلمه للوصف أو التوضيح، كان من المُتوقَّع أن يستخدم لغة المحامين عندما يتناول موضوعًا قانونيًا في يده، مثل «سند شيلوك»

«وهو مصطلح يشير إلى الاتفاق القانوني الذي تم التوقيع عليه بين «شيلوك» و«أنطونيو» في مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير، وفي هذا الاتفاق، يتعهد «شيلوك» بإعطاء «أنطونيو» مبلغًا ماليًا معينًا، ولكن في حالة عدم قدرته على سداد الدين في الموعد المحدد، يكون لـ«شيلوك» الحق في قطع جزء من جسم «أنطونيو»(13)، ولكن استعرضت معرفة القانون في أعمال شكسبير بطريقة مختلفة تمامًا، فقد برزت هذه المعرفة في جميع المناسبات، بمناسبة وغير مناسبة، وامتزجت بأفكار بعيدة كل البعد عن الموضوعات القانونية».

ويذكر أيضًا:

«لاكتساب معرفة كاملة بالمبادئ القانونية؛ والاستخدام الدقيق والمبسط للمصطلحات والعبارات الفنية ليس فقط لمكتب كاتب الوثائق، ولكن أيضًا لغرف المرافعات والمحاكم في «وستمنستر»، لا يلزم سوى العمل في مجال ما يتضمن الاتصال المستمر بالمسائل القانونية والعمل القانوني العام، ولكن العمل المستمر ينطوي على عنصر الوقت، والوقت هو بالضبط ما لم يكن ربما متوفرًا بالنسبة لشكسبير الذي كان مديرًا لمسرحين، فكيف من الممكن أن يُوفِّر الوقت الذي يمكن فيه العثور على فرصة للعمل في القانون، ولو حتى في مكاتب المحامين الذين يمارسون المهنة؟».

يفترض «الستراتفورديون» «وهم الأشخاص الذين يعتقدون أن ويليام شكسبير، هو الكاتب الحقيقي لأعماله»،(14) في محاولة لتفسير معرفة شكسبير المتميزة بالقانون، أنه ربما كان كاتبًا في مكتب محامٍ قبل مجيئه إلى لندن، كتب السيد «كوليير» إلى اللورد «كامبل» لاستطلاع رأيه حول احتمال صحة هذا الأمر، وكانت إجابته كما يلي:

«تطلب منا أن نؤمن بشكل ضمني بحقيقة، كان يمكن لو كانت صحيحة، العثور على أدلة إيجابية لا تقبل الدَّحض بخط يده لإثباتها، وحيث إنه لم يتم تسجيله

فعليًا كمحامٍ، فلن تظهر سجلاته في المحكمة المحلية في «ستراتفورد» أو المحاكم العليا في «ويستمنستر»، ولم يظهر اسمه على أنه مشارك في أي دعوى كممثل قانوني، ولكن كان من المعقول توقع وجود أفعال أو وصايا شهد عليها ما تزال موجودة، وبعد بحث دقيق للغاية لم يتم اكتشاف أي منها».

وعلى ذلك، علّق اللورد «بنزانس»:

«لا شك أن اللورد «كامبل» كان على حق في هذا، لا يمكن لشاب أن يعمل في مكتب محامٍ دون أن يُطلب منه باستمرار أن يعمل كشاهد، ولكن في كل الأحوال، لا بد وأن يترك آثارًا لعمله في هذه المهنة، ولو حتى اسمه».

لا توجد حقيقة واحدة أو حدث واحد في كل ما يُعرف عن شكسبير، حتى ولو مجرد إشاعة تقول إنه عمل في القانون، تؤيد هذه الفكرة القائلة بوجود كاتب -وبعد كثير من النقاش والتخمينات التي دارت حول هذا الموضوع- يمكننا -في رأيي- أن نضع هذه الفكرة جانبًا بكل بساطة، لأن سلطة لا تقل عن سلطة السيد «جرانت وايت» تقول أخيرًا، إن فكرة أنه عمل كاتبًا عند محامٍ «دُمّرت تمامًا».

ومن مميزات السيد «تشورتون كولينز» الفريدة تمامًا أنه مازال يُتبنى هذه الأسطورة التي تم تدميرها، حيث نراه يقول:

«قد يكون صحيحًا أن شكسبير عمل في وقت مبكر من حياته كاتبًا في مكتب أحد المحامين، كان هناك في «ستراتفورد» محكمة سجلات بموجب ميثاق ملكي تعقد جلساتها كل أسبوعين، وكان لها ستة محامين بالإضافة إلى كاتب المدينة، ومن المؤكد أنه ليس من قبيل المبالغة في الاحتمالية أن نقول إن الشاب شكسبير ربما يكون قد وجد عملًا لدى أحد منهم، صحيح أنه لا يوجد أي دليل يُشير إلى ذلك، ولكن الدلائل والإشارات القليلة التي لدينا حول عمل شكسبير بين الفترة التي ترك فيها المدرسة وذهابه إلى لندن فضفاضة ولا أساس لها، لدرجة أنه لا يمكن الاعتماد عليها، ولكن -على أقل تقدير- من الممكن أن نرجح

احتمال أنه كان يعمل في مكتب محامٍ، أكثر من أن نرجح أنه عمل بالجزارة، وأنه كان يذبح العجول ويلقي الخطابات الرنانة عليها».

هذا مثال ساحر على حجج «الستراتفورديين» كما رأينا، هناك دليل قديم جدًا يُفيد بأن شكسبير كان بالفعل مساعدًا لجزار، حيث يشهد «جون دودال» - الذي قام بجولة في «وارويكشاير» عام 1693- على هذا الأمر كما أخبره رجل دين شيخ عرّفه إلى أحد الكنائس في المكان، ويقبله السيد «هاليويل فيليبس» دون تردد على أنه حقيقة، السيد «سيدني لي» لا يرى فيه أي شك، وتدعمه رواية «أوبري»، الذي لا بد أن يكون قد كتب روايته في وقت ما قبل عام 1680، عندما اكتملت مخطوطته، من ناحية أخرى، لا يوجد أدنى أثر لدليل على عمله ككاتب لمحامٍ، لقد تطورت وتشكلت هذه الفرضية من خيال «الستراتفورديين» المحرجين، الذين يبحثون عن تفسير لمعرفة هذا الفتى الريفي الرائعة بالقانون والمصطلحات القانونية والحياة القانونية.

لكن السيد «تشورتون كولينز» لا يتردد مطلقًا في التخلُّص من الدليل الذي ليس له أساس ثابت، ويترك هذا الافتراض السخيف المبتدع، الذي لا يوجد له أي دليل حقيقي فحسب، بل كما يشير اللورد «كامبل» واللورد «بنزانس»، بأنه مجرد دليل يمكن دحضه بمنتهى السهولة، حيث «لا يمكن أن يكون أي شاب يعمل في مكتب محامٍ دون أن يُطلب منه باستمرار العمل كشاهد، وبكثير من الطرق الأخرى التي تترك آثار عمله واسمه».

وكما يوضح أيضًا السيد «إدواردز»، منذ أن نُشر كتاب اللورد «كامبل»:

«تم فحص كل سند قديم أو وصية، ناهيك عن أوراق قانونية أخرى، مؤرخة خلال فترة شباب ويليام شكسبير، في عدد من المقاطعات، ولم يتم العثور على توقيع واحد للشاب».

بالإضافة إلى ذلك، إذا كان شكسبير قد عمل كاتبًا في مكتب محامٍ، فمن

الواضح أنه كان عليه أن يخدم لفترة طويلة حتى يكتسب -حتى لو كان من المعقول أنه كان بإمكانه أن يكتسبها- معرفته الرائعة بالقانون، هل يمكننا أن نصدق للحظة أنه لو كان الأمر كذلك، فإن الدليل بشأن هذه المسألة مخفيًا تمامًا؟

لم يكن يتعين على رجل الدين الشيخ الذي قابله «دودال»، الذي تجاوز عمره الثمانين عامًا، أن يسمع بهذه القصة «على الرغم من أنه كان متأكدًا تمامًا من أن شكسبير عمل مساعدًا لجزار»، ولا بد أن جميع الشهود الآخرين على مستوى الجهل نفسه، لكن هذه هي أساليب جدل «الستراتفورديين»، ولكن يجب الابتعاد عن الدلائل عندما يجد المرء أنها غير ملائمة، ولكن يتم الاستشهاد بها كحقيقة حتى عندما تناسب أو تلائم وقائع القضية، كان شكسبير مؤلّف المسرحيات والقصائد، لكن مؤلف المسرحيات والقصائد لا يُمكِن أن يكون قد عَمل بالجزارة.

إذن، هيا نبتَعِد عن هذه الأدلة، لكن مؤلف المسرحيات والقصائد يجب أن يكون لديه معرفة واسعة ودقيقة للغاية بالقانون، لذلك، لا بد أن يكون شكسبير قد عمل كاتبًا عند أحد المحامين، الطريقة بسيطة للغاية، وبالمنطق نفسه يمكن أن نقول إن شكسبير كان مديرًا لمدرسة ريفية، أو جنديًا، ربما طبيبًا، أو عامل في مطبعة، والعديد من الأشياء الأخرى إلى جانب ذلك، كل هذا وَفقًا لميل من يؤمنون بهذا الافتراض، وعليه لن يكون من المستغرب على الإطلاق أن نعرف أنه كان يدرس اللاتينية مدرّسًا، وأنه كان يدرس القانون ويتعلّمه –في الوقت نفسه- بمكتب محامٍ.

مع ذلك، يجب أن ننصف السيد «كولينز» ونقول إنه أدرك تمامًا -وهو أمر واضح إلى حد ما- أن شكسبير لا بد أن يكون قد تلقى تدريبًا قانونيًا جيدًا، فقد كتب قائلًا:

«قد يُقال بالطبع إن معرفة شكسبير بالطب، وخاصة ذلك الفرع المتعلق بعلم النفس المَرَضي، شديدة الدقة والروعة، ولم يدّعِ ولم يقل أحد قطُّ إنه كان طبيبًا».

هنا يخطئ السيد «كولينز»، فقد تم طرح هذا الادعاء أيضًا، «وقد يُقال أيضًا إن معرفته بالتفاصيل الفنية للحِرَف والمِهَن الأخرى، ولا سيما الشؤون البحرية والعسكرية، كانت غير عادية أيضًا، ومع ذلك لم يشك أحد في أنه كان بحارًا أو جنديًا».

خطأ مرة أخرى، حتى السادة «جارنت» و«جوس» يشككان في أنه كان جنديًا! يمكن الإقرار بذلك، لكن هذا الإقرار لا يقدم تشبيهًا واضحًا، إنه يعود إلى هذه الموضوعات وغيرها من حين لآخر، وفي الوقت المناسب، ولكن ذاكرته كانت مُشبَعة تمامًا بالتفاصيل القانونية، كما هو واضح تمامًا، سواء أكان ذلك بشكل واضح أم خفي، فهو يستخدم هذه التشبيهات في كل وقت لخدمة التعبير والتشبيه، ويشتق ما لا يقل عن ثلث استعاراته العديدة منه، سيكون من الصعب حقًا العثور على مشهد واحد في كل مسرحياته –أو حتى في بعضها- لم يستخدم فيه القانون بشكل أو بآخر، سواء في أسلوبه، أم كأداة للتعبير عما يريد قوله.

ربما يكون قد اكتسب كثيرًا من معارفه القانونية من ثلاثة كتب كان بإمكانه الوصول إليها بسهولة، وهي «سوابق توتيل» « «Tottell's Precedent 1572»»، و«قوانين بولتون» «1578» «Pulton's Statutes»، و«منطق المحامي فراونس» « 1588» «Fraunce's Lawier's Logike»، وهي أعمال يبدو أنه كان على دراية بها بالتأكيد، لكن كثيرًا منها لا يمكن أن يأتي إلا من شخص لديه معرفة وثيقة بالإجراءات القانونية.

نتفق تمامًا مع السيد «كاسل» على أن معرفة شكسبير القانونية ليست شيئًا يُمكِن اكتسابه من العمل في مكتب محامٍ، بل يُمكن اكتسابه فقط من خلال الحضور الفعلي في المحاكم، وفي مكاتب المُدَّعين العامين، وفي الدوائر الخاصة جدًا للحديث عن القانون، أو من خلال الارتباط الوثيق بأعضاء هيئة المحلفين ونقابة المحامين.

هذا ممتاز حقًا، ولكن ما تفسير السيد «كولينز»؟:

«ربما يكون الحل الأبسط للمشكلة هو قبول الفرضية القائلة بأنه كان يعمل في مكتب محامٍ في وقت مبكر من حياته! وأنه اكتسب هناك حبًا للقانون لم يفارقه قطُّ، وأنه كشاب في لندن، واصل دراسته أو قرأ فيها من أجل التسلية، وأنه بالفعل كان يذهب للمحاكم في وقت فراغه، ومن ثم تعامل مع المحامين، بأي افتراض آخر من المستحيل تفسير ما جذبه في القانون، ودقته المتناهية في استخدامه للقانون بطريقة لم ينجح فيها أي شخص عادي تحدث عن الأمور نفسها، وحتى لو فعل هذا شخص عادي فإنه سيتحدث، ولكن ليس بمثل هذه الشروح الواسعة، والاستفاضة في الحديث، عن المصطلحات القانونية، الشخص العادي لن يستطيع أن يتحدث في كل هذا دون أن يتعثر، أو يخطئ».

إنه استنتاج بسيط وليس افتراضًا آخر، بالفعل، نعم، هناك افتراض آخر واضح جدًا، وهو أن شكسبير نفسه كان محاميًا، على دِراية جيدة بمهنته، وعلى علم بتفاصيل المحاكم، وعلى علاقة وطيدة بالقضاة وأعضاء محاكم المحامين.

بالطبع نشعر بالامتنان لأن السيد «كولينز» أدرك حقيقة أن شكسبير يجب أن يكون قد تلقَّى تدريبًا قانونيًا سليمًا، لكن يمكن أن يغفر لي إذا لم أكن أُولِي أهمية كبيرة لأقاويله بشأن هذا الجزء من الموضوع، مثل تصريحات «مالون»، و«لورد كامبل»، والقاضي «هولمز»، والسيد «كاسل»، واللورد «بنزانس»، والسيد «جرانت وايت»، ومحامين آخرين عبّروا عن رأيهم في مسألة معرفة شكسبير بالقانون.

هنا، ربما يجدُر الاستشهاد مرة أخرى بكتاب اللورد «بنزانس» حول اقتراح أن شكسبير تمكن بطريقة ما «من اكتساب معرفة تامة بالمبادئ القانونية واستخدام دقيق ومبسط للمصطلحات والعبارات الفنية، ليس فقط لمكتب التوثيق، ولكن أيضًا لغرف المحامين والمحاكم في «وستمنستر»». يوضِّح اللورد «بنزانس» أن هذا «يتطلب على الأقل العمل في مهنة تتعلق بالمسائل القانونية العامة والعمل

القانوني العام».

ولكن «في أي جزء من مسيرة شكسبير، سيكون مِن الممكن تحديد الوقت الذي وجد فيه فرصة عمل قانونية في غرف المحامين الممارسين لتلك المهنة أو مكاتبهم بالفعل؟ لا شك أنه في فترة مبكرة، طُلب منه التوقف عن الذهاب للمدرسة لمساعدة والده، ثم بعد ذلك، في سن السادسة عشرة، كان ملتزمًا بالتدريب على حرفة، ولأنه كان ملتزمًا تجاه هذا العمل أو هذه الحرفة التي يتدرب بها، لم يكن ليستطيع القيام بأي عمل آخر».

ثم يغادر «ستراتفورد» ويأتي إلى لندن، كان عليه أن يُؤمِّن لنفسه سبل العيش، وقد فعل ذلك عن طريق عمله في المسرح، لا أحد يشك في ذلك، ولكنه يبقَى احتمالًا غير مُثبَت بالتأكيد، وفي كل الأحوال مهما كانت طبيعة عمله في المسرح، لا يكاد يوجد مَجال للاعتقاد بأنه من الممكن أنه كان يمارس المحاماة أو قريب من تلك الدائرة في هذه الفترة من عمره، لأن تقدمه في عمله بالمسرح كان سريعًا جدًا، ولم يَفضِ وقت طويل حتى تم قبوله في الفرقة كممثل، وسرعان ما تم التحدُث عنه باعتباره أحد الأشخاص المؤثّرين في عمل المسرح، وأنه عبقري، كما أن السرعة التي راكم وجمع فيها ثروته، تُشير أنه بالفعل عمل بمنتهى الهمة في المسرح، وحين نفكر الآن نفشل عن تحديد النقطة التي يُمكِن أن يترك فيها كل هذا –أي الخطوات الناجحة التي اتخذها في المسرح- لكي يعمل في القانون، أو حتى في أي مجال آخر.

يقول «نايت»:

«هناك دليل لا جِدالَ فيه يعود لعام 1589، على أنه لم يكن عامل أو ممثل بعقدٍ مؤقت، ولم يكن مجرد موظف بأجر، كما كانت الحال مع عديد الممثلين والعاملين بالمسرح، ولكنه كان أحد المساهمين في المسرح، ضمن آخرين كانوا ربما أقل منه».

هذا وقع عام 1589 أي بعد عامين من وصوله إلى لندن، الذي قدّره «وايت» و«هالي ويل فيليبس» أنه كان حوالي عام 1587، إن صعوبة افتراض أنه حين كان لا يزال محدود التعليم والثقافة في عام 1587 -الوقت الذي يُفترض أنه جاء فيه إلى لندن- تم تشجيعه على الدخول في مسار من الدراسة الموسّعة والثقافة العقلية -ومِن ضِمنها القانونية- يكاد هذا الافتراض أن يبدو غير حقيقي تمامًا، ولكن الشيء الحقيقي، أن امتلاكه للثروة وجمعه للمال بعد وقت قصير من مجيئه إلى لندن يتحدث عن مدى جدية عمله، وعن نشاطه في العمل بالمسرح.

ومع ذلك، من الممكن الافتراض أن هذا كان ممكنًا بالفعل، ولكن بشرط أن يكون قد تمكّن دائمًا من الوصول إلى الكتب اللازمة، لكن يبدو لي أن هذا التدريب القانوني يقف على أساس مُختلِف، إنه ليس فقط غير منطقي أو غير قابل للتصديق، بل إن الواقع -ومسيرته المهنية- هما اللذان يرفُضان هذا الافتراض.

ثم يشير اللورد «بنزانس» إلى حقيقة أنه بحلول عام 1592 «وَفقًا لأفضل مرجع، السيد جرانت وايت»، كان قد كتب عديدًا من المسرحيات، منهم: «كوميديا الأخطاء» عام 1589، و«عذاب الحب الضائع» عام 1589، و«نبيلان من فيرونا» في عام 1589 أو 1590، وما إلى ذلك.

ثم يسأل:

«مع هذه القائمة من الأعمال الدرامية، التي أصبحت في متناول اليد، هل كان من الممكن أن يكون مسؤولًا في الوقت نفسه عن مسرحين؟ وإذا أخذنا برأي السيد «فيليبس»، ووضعنا في الحسبان إدارته لمسرحين، ومشاركته في القيام بالأعمال نفسها، هل من الممكن أنه في الوقت نفسه كرّس وخصّص جزءًا من وقته لدراسة القانون بكل فروعه بكفاءة عالية ليجعل نفسه مطلعًا بشكل كبير على خبايا القانون ويغرق عقله بكل تلك المصطلحات الدقيقة؟».

استشهَدت بهذا الجزء من كتاب اللورد «بنزانس» لأني وجدته أمامي، وقد استشهدت به بالفعل فيما يتعلّق بمعرفة شكسبير بالقانون، لكن كتَّابًا آخرين ما زالوا يعرضون بشكل أفضل الافتراضات التي لا يمكن إغفالها، والتي تشغلني أيضًا، والتي تتحدث عن فكرة أن شكسبير ربما وجد وقتًا في فترة غير معروفة من حياته المبكرة -وسط كثير من الانشغالات الأخرى- لدراسة اللغة الكلاسيكية والأدب والقانون، ناهِيكَ عن اللغات وبعض الأمور الأخرى.

يسأل «اللورد بنزانس» قُرَّاءه أيضًا: «هل قابلت أو سمعت عن حالة قام فيها شاب في هذا البلد بتكريس نفسه لدراسة القانون أو المشاركة في العمل القانوني، وهي الطريقة الوحيدة للتعرف إلى التفاصيل الدقيقة لمن يعملون في المهنة بالفعل، إلا من أجل العمل في المحاماة؟ لا أعتقد أنه سيكون من السهل، أو حتى من الممكن، تقديم مثال قام فيه شخص بدراسة القانون بجدية والإحاطة بكل جوانبه وفروعه، إلا لممارسة مهنة المحاماة».

***

ولكن في كل الأحوال إن هذه الشهادة قوية جدًا، ومباشرة جدًا، وموثوقة للغاية، وهي شهادة من الصعب التشكيك فيها، وغير مشوبة بالتخمينات والافتراضات والاحتمالات، أو الظن أنه لربما كان هكذا، وليس هكذا، أو وربما كان يجب أن يكون هكذا، وبقية أطنان الجِص التي بنى منها كُتَّاب السيرة الذاتية لذلك العملاق الهائل الذي يحمل اسم ممثل «ستراتفورد»، بحيث أقنعتني تمامًا بأن الرجل الذي كتب أعمال شكسبير كان يعرف كل شيء عن القانون والمحامين، وأيضًا أن ذلك الرجل لا يمكن أن يكون هو شكسبير الذي نشأ في «ستراتفورد» أبدًا.

ويبقى السؤال، من الذي كتب هذه الأعمال؟

أتمنى لو كُنت أعرف.

الفصل التاسع

هل كتب فرانسيس بيكون أعمال شكسبير؟

لا أحد يعلم.

لا يمكننا القول إننا نعرف شيئًا، في حين أن هذا الشيء لم تثبت صحته، «أعرف» كلمة أقوى من أن تستخدم عندما لا يكون الدليل نهائيًا وحاسمًا أو واضحًا تمامًا، يُمكِننا أن نستنتج -إذا أردنا ذلك- مثل هؤلاء العبيد، لا، لن أكتب هذه الكلمة، إنها ليست لطيفة، وليست مهذبة.

يصفنا مؤيدو خُرافة شكسبير «ستراتفورد» بأقسَى الأشياء التي يستطيعون التفكير فيها، ويستمرون في فعل ذلك طوال الوقت، حسنًا، إذا كانوا يُحِبُّون النزول إلى هذا المستوى، فَلْيَفْعلوا ذلك، لكني لن أهين نفسي لأتبعهم، لا يُمكِنني أن أصِفَهم بأسماء قاسية؛ أقصى ما يمكنني فعله هو الإشارة إليهم بمصطلحات تعكس عدم موافقتي عما يؤمنون به، بدون إهانة ولا حقد.

لنتابع إذن، كنت على وشك القول بأن هؤلاء الأوغاد قد بنوا خرافاتهم بالكامل على التخمينات، وليس على الحقائق المعروفة والمؤكدة، إنها طريقة ضعيفة ومُزْرِيَة، وأنا سعيد لأقول إن فريقنا لا يلْجَأ إليها مطلقًا طالما كان هناك أي خيار آخر.

ولكن عندما يتوجّب علينا، أو يُفرض علينا ذلك، وقد وصلنا الآن إلى هذه النقطة، ونظرًا لأن شكسبير «ستراتفورد» لم يكن ليتمكّن من كتابة الأعمال، نستنتج أن شخصًا ما قد فعل ذلك..

إذن من هو؟

يتطلب الأمر مزيدًا من الاستنتاج، والافتراضات.

عادةً عندما تنتشر قصيدة غير موقعة، ويكون صاحبها غير معروف، وتثير

حالة من الجدل والصخب كمَوْجَة المد والجزر في أنحاء القارة والبلاد، والتي ينتج عنها هتافات من الإعجاب والرضا والاستحسان، والتصفيق الحاد، في هذا الوقت يظهر عشرات الأشخاص المجهولين والغامضين، ويطالبون بِحَق التأليف.

لماذا العشرات، وليس واحدًا أو اثنين فقط؟

أحد الأسباب هو أن هناك عشرات من المغمورين الذين هم مؤهلون بشكل واضح لتأليف تلك القصيدة.

هل تتذكر قصيدة «ثلج جميل Beautiful Snow»؟ هل تتذكر «هدهديني يا أمي، هدهديني للنوم» «Rock Me to Sleep, Mother, Rock Me to Sleep»؟ هل تتذكر «إلى الوراء، إلى الوراء، يا زمن، في رحلتك الطائرة! اجعلني طفلًا مرة أخرى هذه الليلة فقط» «Backward, turn backward, O Time, in thy flight Make me a child again just for to-night»؟ أذكرهم جيدًا.

ادّعى معظم البالغين والعاقلين الذين كانوا على قيد الحياة في ذلك الوقت بتأليفهم القصائد، وكان لكل مطالِب حجة معقولة واحدة على الأقل، في محاولة لإثبات أنه من قام بتأليفها وأن بإمكانه تأليفها وكتابتها بالفعل.

ولكن في حالة شكسبير، هل ادّعى العشرات أنهم المؤلفون؟

لا، لم يحدث ذلك، وكان هناك سبب وجيه لذلك.

فالعالم كله يعلم أنه لم يكن هناك سوى رجل واحد على هذا الكوكب في ذلك الوقت مؤهل -وليس العشرات، ولا اثنان- لكتابة كل تلك الأعمال.

فمنذ زمن بعيد، اعتاد سكان بلد بعيد أن يجدوا بين الحين والآخر كثيرًا من آثار الأقدام الهائلة التي تمتد على طول السهل، المسافة بين كل قدم ثلاثة أميال، ويبلغ طول القدم ثلث الميل وعمق أثرها 200 متر تقريبًا، وتحتها غابات وقرى

مهروسة بشكل كامل، هل كان هناك أي شك حول مَن صنع هذا المسار الجبار؟ هل كان هناك عشرات المُدّعين؟ هل كان هناك اثنان حتى؟ لا، عرف الناس مَن الذي كان هناك، فقد كان هناك «هرقل» واحد فقط.

لم يكن هناك سوى شاعر واحد هو شكسبير، لا يُمكِن أن يكون هناك اثنان، وبالتأكيد لا يُمكِن أن يكون هناك اثنان في الوقت نفسه، يتطلّب الأمر أجيالًا لتقديم شكسبير آخر، وأجيالًا أخرى لمضاهاته، لم يجد نظيره قبل عصره، ولا خلاله، ولم يتم مساواته منذ ذلك الحين، وآفاق مضاهاته في عصرنا ليست مُشرِقة.

يزعم أصحاب نظرية بيكون أن شكسبير «ستراتفورد» لم يكن مؤهلًا لكتابة الأعمال، وأن فرانسيس بيكون هو الذي يستطيع فعل ذلك، ويؤكّدون أن بيكون كان يمتلك المؤهلات العظيمة -الفطرية والمكتسبة- لعمل هذه المعجزة، وأن أي إنجليزي آخر في عصره لم يكن يمتلك مثلها، أو حتى ما يقترب منها.

يتحدّث «توماس ماكولي»، المؤرّخ والسياسي البريطاني، في مقالته كثيرًا عن روعة الإمكانيات التي يتمتّع بها بيكون وعظمتها التي لا حُدود لها، كما إنه لخّص تاريخ بيكون، وهو أمر لا يمكن فعله مع شكسبير «ستراتفورد» لأنه لا يوجد تاريخ له يمكن تلخيصه.

إن تاريخ بيكون واضح بالنسبة للعالم، من طفولته حتى وفاته في سن الشيخوخة، تاريخ يتكون من حقائق معروفة تُعرض بتفاصيل دقيقة ومُتعدّدة، حقائق، وليس تخمينات وتكهُّنات وافتراضات.

يبدو أنه وُلِد لعائلة من رجال الدولة، وكان والده مستشارًا للملك وأمه لُغوية عالمة لاهوت معروفة، تراسلت باللغة اليونانية مع الأسقف «جويل»، وترجمت دفاعه من اللاتينية بإتقان، لدرجة لم يستطِع هو ولا رئيس الأساقفة «باركر» اقتراح أي تغيير.

إن البيئة التي نتربى فيها هي التي تحدد مُيولنا وتطلعاتنا، كانت البيئة التي وفرها الوالدان للابن في هذه الحالة مليئة بفرص التعلم، والتأملات في الموضوعات العميقة، والثقافة النافعة، كل هذه الأشياء كان لها تأثيرها الطبيعي.

في المقابل نشأ شكسبير في «ستراتفورد» بمنزل لا يوجد فيه كتب، حيث كان والداه غير متعلمَين، ربما كان لهذا الأمر تأثير على الابن، لكننا لا نعلم، لأننا لا نمتلك سجلًا معلوماتيًا عنه، في ذلك الزمن، كان عدد الكتب قليلًا للغاية، ولم يكن يمتلكها إلا الأثرياء والمتعلّمون جيدًا، وكانت تقتصر تقريبًا على اللغات التي اندثرت تقريبًا.

تخيَّل: «كل الكتب القيِّمة الموجودة آنذاك بجميع اللغات العامية في أوروبا لم تكن لتملأ رفًا واحدًا»!

وكانت الكتب القليلة الموجودة في الغالب مترجمة من اللغة اللاتينية.

من كان جاهلًا بالأدب القديم حَرَم نفسه من التعرف إلى أمور عظيمة، ليس فقط خطابات «شيشرون» وأشعار «فرجيل»، بل وأيضًا على أهم المذكرات والمستندات الحكومية والكتيِّبات في عصره، كان هذا الأدب ضروريًا لشاب «ستراتفورد» «ويليام شكسبير»، من أجل سمعته الوهمية، لأن كاتب أعماله بدأ استخدامها على نِطَاق واسع وببراعة تامة قبل أن يتجاوز الشاب عمره عشرين عامًا بقليل.

في سن الخامسة عشر، أُرسِل بيكون إلى الجامعة، وأمضى هناك ثلاث سنوات، ومن ثم ذهب إلى باريس برفقة السفير الإنجليزي، وهناك اختلط يوميًا بالعلماء والمثقفين والكبار والأرستقراطيين المرفَّهين، لمدة ثلاث سنوات أخرى، بمجموع سِت سنوات قضاها في مَنابع المعرفة، معرفة بالكتب والبشر على حدّ سواء، وتزامنت الثلاث سنوات التي قضاها في الجامعة مع الثلاث سنوات الثانية والأخيرة التي قضاها فتى «ستراتفورد» الصغير في مدرسة «ستراتفورد» على

ما يبدو، وربما، وقد يكون وباستنتاج -مع عدم وجود ما نستنتجه منه- أنه بينما قضى بيكون السنوات الثلاث الثانية مع المثقفين، قضاها شكسبير -على الأرجح- كصبي للجزار.

إذن، يَفترِض الأوغاد ذلك، دون أي دليل من أي نوع، وهذه هي طريقتهم، عندما يريدون إثبات حقيقة تاريخية، الحقيقة والافتراض -لأغراض تِجارية- مُتماثِلان بالنسبة لهم، إنهم يعرفون الفَرق، لكنهم يعرفون أيضًا كيفية تجاهله، كما أنهم يعلمون أنه بينما تكون الحقيقة أفضل من مجرَّد الافتراض في بناء التاريخ وكتابته، إلا أن الافتراض لا يستغرِق وقتًا طويلًا ليُصبِح حقيقة، بالتحديد عندما يملكون سُلطَة التعامل معه.

إنهم يعلمون من التجربة القديمة أنه عندما يستحوذون على افتراض، فهو لن يصبح افتراضًا حين يكتبونه في كتبهم التاريخية، لا، كأنهم يربون ضفدعًا صغيرًا ويعرفون كيفية تطويره وتحويله إلى ضفدع عملاق ذي أربعة أرجل حقيقية، وجعله يجلس على ساقيه، وينتفخ ذقنه، ويبدو مهمًا ومتعجرفًا وله قيمة، ويؤكد على صِحَّة أصله النقي الحقيقي بزئير مدوٍّ يقنع الجميع لأنه مرتفع جدًا.

يدرك الأوغاد أن الصوت العالي يقنع ستين شخصًا، بينما يقنع المنطق شخصًا واحدًا فقط.

لن أكون وغدًا، حتى لو لم يكن الأمر كذلك، ولكن لا تهتم بذلك، فلا علاقة له بالحجة أو الدليل، كما أنه ليس أسلوبًا نبيلًا، ولا ينتج عن روح جيدة، إذا كنت أفضل من الأوغاد، فهل الفضل في ذلك يعود إليّ؟ لا، إنه حقه، فله الحمد، تلك هي الروح الصحيحة.

يُقال بأنّ الشاب قطع علاقته «المُفتَرَضة» بمدرسة «ستراتفورد» ليصبح صبيّ جزار، ويُفترَض أيضًا أنّ ذلك الجزار كان والده، لكنّ هذا كلّه مُجرد تخمينات، فلا

يوجد دليل مكتوب أو أيّ إثباتٍ فعليٍّ على ذلك.

ولو أنّ مثل هذا الادعاء يخدم قضيتهم، لاستطاعوا أن يجعلوه يتدرب لدى ثلاثين جزارًا، بل وخمسين جزارًا، وحتى مجموعة هائلة من الجزارين، كل ذلك وفقًا لمنهَجِهم المُسجّل والمتمثّل في «الافتراض».

وإذا كان ذلك سيقوّي موقفهم؛ فسوف يفعلونه بكل تأكيد، وإنْ كان سيُعزّز قضيتهم أكثر؛ فسيُفترضون أنّ جميع هؤلاء الجزارين كانوا والده بالفعل.

وبعد أسبوع، سيزعمون الأمر ذاته، إنّ هذا يشبه ترجمة زمن الفعل الماضي للحرف الظرفي الفعلي المُركّب المُكثّف الغريب المُتعدّي إلى مفعولٍ به جمع، وهو أصل التعبير الذي يسمّيه النحويون بالفعل، إنه كشجرة عائلة من أصل واحد.

فلنعد إلى حديثنا عن بيكون الذي بدأ بعد ذلك دراسة القانون، وأتقن هذا العلم الصعب، ومنذ ذلك اليوم وحتى نهاية حياته، كان على اتصالٍ وثيقٍ بالمحامين والقضاة يوميًا، ليس كمُتفرّج، أو عابر سبيلٍ بين فترات ربط الخيول ورعايتها أمام المسرح، بل كمُحامٍ مُمارس، عظيم وناجح وشهير، كـ«لانسلوت»(15)، لكن في ساحات المحاكم، والرمح الأكثر شراسة في ساحات العدالة الباهرة، لقد عاش في أجواء القانون منذ ذلك الحين طوال حياته، وبِمَحض براعته، شقّ طريقه صعودًا إلى القِمّة الخطيرة حتى وصل إلى أسمى منصبٍ وهو مَنصب المستشار القانوني، ولم يترك وراءه أيّ منافسٍ مُؤهلٍ أو حقود للتشكيك في هذا المنصب الجليل.

عندما نقرأ الثناء الذي يَفيض به اللورد «بنزانس» والخبراء البارزين الآخرين على الشرعية القانونية والبراعة القانونية والبهاء والعمق والاستفاضة المعروضة بكثرة في المسرحيات، ونحاول أن نطبّقها على مدير مسرح «ستراتفورد» الذي لا تاريخ له، فإنها تبدو غير منطقية وغريبة ولا تُصدّق ومضحكة، ولكن عندما نعتبر أنها خارجة مِن فَم بيكون فلا تبدو غريبة، بل تبدو في مكانها الطبيعي والمنطقي،

وتبدو كما لو كانت في وطنها ومكانها الصحيح هناك.

يرجى إعادة قراءتها مرة أخرى، تُنسَب هذه الأقوال إلى شكسبير «ستراتفورد»، لكنها لا معنى لها، إنها مغالاة في حالة سُكر، مجرّد إعجابات مُفرِطة بجانب القمر المُظلم، إذا جاز التعبير، ولكن عندما تُعزَى إلى بيكون، فإنها إعجابات بالمَجد الذهبي لجانب القمر المُنير، القمر المكتمل، وليست مجرّد مبالغة أو افتراض، بل عقلانية وصحيحة ومبررة.

«في كُل منعطف ونقطة يحتاج فيها المؤلف إلى استعارة أو تشبيه أو توضيح، كان عقله دائمًا يتّجه أولاً إلى القانون؛ يبدو أنه كان يفكر بعبارات قانونية؛ وكانت أبسط العبارات القانونية وأكثر التعبيرات القانونية شيوعًا تَفيض مِن سِن قلمه».

ونكرر، لا يُمكِن أن يَحدُث هذا إلا لشخص مهنته القانون، لا يمكن أن يحدث لمجرد هاوٍ في هذه المهنة، يملأ البحّارة القدامى محادثاتهم بعبارات البحارة ويستخلصون جميع تشبيهاتهم من السفينة والبحر والعاصفة، لكن لا يقوم بذلك أي راكب عادي، سواء كان من «ستراتفورد» أم مِن أي مكانٍ آخر، ولا يُمكِنه أن يفعل ذلك بدِقّة، حتى لو كان شجاعًا بما يكفي لمحاولة ذلك.

يُرجَى إعادة قراءة ما قاله اللورد «كامبل» وأصحاب الآراء العظيمة الأخرى، ولكن هذه المرة نقرؤها وكأن المقصود بها بيكون، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يقولون ذلك عن شكسبير «ستراتفورد».

الفصل العاشر

باقي الأدوات والتقنيات

وكان مؤلف المسرحيات يتحلّى -أكثر من أي رجل آخر في عصره- بالحكمة، وسعة الاطلاع، والخيال الجامح، وسعة العقل، ورشاقة التعبير وجلاله، الجميع قال ذلك؛ ولا أحد يشك في هذا الأمر، كما أنه كان يتمتّع بروح الدعابة، والفكاهة، يبدو هذا ملحوظًا، حيث يبدو أنه يتمتع دائمًا بحاجة إلى الانطلاق في الحديث عن أيٍّ من هذه الأشياء، ليس لدينا أي دليل من أي نوع على أن شكسبير «ستراتفورد» كان يمتلك أيًا من هذه المواهب أو أيًا من هذه الأدوات أو التقنيات، إن السطور الوحيدة التي كتبها -على حد علمنا- كانت خالية إلى حد كبير من هذه التقنيات والأشياء، بل إن هذه الأشياء كانت بالفعل غير موجودة في النصوص التي من المؤكد أن شكسبير هو الذي كتبها.

«إنه رفيق جيد، يسوع الذي جاء من أجل التسامح

من أجل هذه الرسالة الرفيقة المغلقة، اسمع:

لا تحفر، اترك الغبار المدفون هنا بسلام

طوبَى للرجل الذي يحفظ هذه الأحجار

واللعنة على يتجرأ على العبث بعظامي».

يقول «بن جونسون» عن «بيكون»، بوصفه خطيبًا:

«عندما كان يستطيع تخطي الحد المعين للمزاح وتجاوزه، فإن لغته كانت تحمل نقدًا لاذعًا بشكل راقٍ ونبيل، لم يتحدث أحد بكلام أكثر دقة، وأكثر إيجازًا، وأكثر ثقلًا، ولم تكن لغته جافة قطُّ، فكل جزء من خطابه يحمل معنى ما وله جماله الخاص، وكان من يستمع له يستمتع بهذا الحديث، ويخشى أن ينتهي بيكون من حديثه».

يقول «ماكولي»:

«استمر بيكون في الحفاظ على مكانة مميزة لنفسه في البرلمان، ولا سيما بجهوده من أجل إجراء عظيم واحد كان قلب الملك يتوق إليه -وهو إتحاد إنجلترا وأسكوتلندا- لم يكن من الصعب على مثل هذا العقل أن يتوصل إلى عديد من الحجج القوية التي لا يُمكِن دحضها لصالح هذا المخطط، تولى القضية الكبرى المعروفة بـ«Post Nati» أو «قضية كالفين»(16) بمهارة، وساهم في تشكيل قرار القضاة -وهو قرار قد يكون مشكوكًا في شرعيته القانونية، ولكن يجب الاعتراف بأثره النافع والمفيد- ويعود إليه الفضل في تبلور هذا القرار وصدوره».

على الرغم من انخراطه النشط في مجلس العموم والمحاكم القانونية، فقد وجد مساحةً خاصة للآداب والفلسفة، صدر له في عام 1605، كتابه الهام «تقدم العلم» والذي توسع في البحث في موضوعه في وقت لاحق ليصدره بعد ذلك تحت عنوان «التعزيز العلمي».

في عام 1609، نُشر كتاب «حكمة القدماء»، الذي كان سيُعتبر تحفة ومثالًا عن الذكاء والعبقرية والمعرفة لو أنه صدر عن أي كاتب آخر، في تلك الأثناء، كان العمل جارٍ ببطء على كتاب «التوجيهات الصحيحة المتعلقة بتفسير الطبيعة» أو «الأورجانون الجديد»، سُمح لعديد من العلماء والمبدعين المميزين والمرموقين برؤية أجزاء من هذا الكتاب الرائع، وتحدثوا بإعجاب كبير عن تفرده.

حتى السير «توماس بودلي»، بعد قراءة كتاب «التوجيهات الصحيحة المتعلقة بتفسير الطبيعة» أو «Cogitata et Visa» ورؤيته لتلك التأملات والرؤى، اعتبر الكتاب أحد أكثر الأوراق التي لا تُقدّر بثمن حول هذا الموضوع فتم تجميعها لاحقًا في مجلدات عظيمة، واعترف بأنه «من خلال كل مقترح ومخطط في هذا الكتاب، أظهر بيكون مهارته وتفرد فنه»، وأنه «لا يمكن إنكار أن جميع

الأطروحات التي قدمها تزخر وتحاول تفسير عددًا من المفاهيم المختارة عن الوضع الحالي للتعلم والمعرفة، كما يقدم تأملات جديرة بالاهتمام حول السبل المتاحة لتحقيق ذلك».

في عام 1612 نُشرت طبعة جديدة من كتاب «المقالات»، مع إضافات تتجاوز المجموعة الأصلية من حيث الحجم والجودة.. ولم تصرف هذه المساعي انتباه بيكون عن عمل هو الأكثر صعوبة، والأكثر إبداعًا، والأكثر فائدة حتى بالنسبة لقدراته الهائلة التي كان من الممكن أن يحققها، «اختصار وتلخيص قوانين إنجلترا»، على حد تعبيره.

لو كان أي رجلٍ آخر خدم في المناصب الصعبة والشاقة مثل النائب العام والمدعي العام، لكان ذلك قد أشبع رغبته في العمل الجاد والهام، لكن فرانسيس بيكون لم يكتفِ بذلك، بل أضاف إليها المشاريع الأدبية الضخمة -التي سبق ذكرها- لإرضاء نهمه للمعرفة، لقد ولد بيكون حقًا لتحقيق أشياء عظيمة.

إن الخدمة التي قدَّمها للآداب خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته، وسط عشرة آلاف من عوامل التشتيت والإزعاج، تزيد من الأسف الذي نشعر به عندما نفكر في السنوات العديدة التي أهدرها، على حد تعبير السير «توماس بودلي»: «في دراسة أشياء لا تليق بطالب مثله».

بدأ بيكون تلخيص قوانين إنجلترا، وتاريخ إنجلترا تحت حكم أمراء أسرة «تيودور»، وبعض الأحداث من التاريخ الوطني، ورواية فلسفية، كما قام بإضافات واسعة وقيمة على مقالاته ونشر الرسالة التي لا تقدر بثمن «التعزيز العلمي»(17).

هل ملأت تلك الأعمال العظيمة، التي تبدو أشبه بما كان يقوم به «هرقل» من أعمال شاقة ومهولة، وقته حتى ارتاح، وأسكتت رغبته في العمل؟ بالطبع لا، هذا ليس صحيحًا:

«فحتى التفاهات التي كان يسلّي بها نفسه في ساعات الراحة عندما يشعر بالإرهاق تحمل بصمة عقله، وكانت تستغرق ساعات من التفكير، إن أفضل كتاب هزلي في العالم هو ذلك الذي أملاه من الذاكرة، دون الرجوع إلى أي كتاب، في يوم أقعده المرض عن الدراسة الجادة».

إليك بعض الملاحظات المتفرقة التي كتبها «ماكولي»، التي تُلقي الضوء على بيكون وتُشير إلى -وربما تثبت- أنه كان مؤهلًا لكتابة المسرحيات والقصائد التي حملت اسم شكسبير:

«كان يتمتع بدقة ملاحظة كبيرة مع سعة فهم لم يتمتع بهم أي إنسان آخر حتى الآن».

«يحتوي كتاب «المقالات» على أدلة وفيرة على أنه لم يغفل أي شيء عابر أو دقيق للغاية، وهذا دليل على أن عقله كان قادرًا على الإحاطة بأجزاء كثيرة من المعرفة، ويبدو أنه يفعل ذلك بسهولة كما لو أنه يقوم بترتيب المنزل».

«كان فهمه يشبه الخيمة التي أعطتها الجنية «باريبانو» للأمير «أحمد»(18): «فتبدو كأنها لعبة في يد السيدة؛ تفردها أو تطويها بسهولة، وقد تستريح جيوش السلاطين الأقوياء تحت ظلها».

كانت المعرفة التي برع فيها بيكون أكثر من جميع الأشخاص الآخرين، معرفة بالعلاقات المتبادلة بين جميع أقسام المعرفة.

في رسالة كتبها عندما كان يبلغ الحادية والثلاثين فقط، إلى عمه اللورد «بورلي»، قال: «أنا أتعامل مع كل المعارف وكأنها من اختصاصي».

على الرغم من أن بيكون لم يسلّح فلسفته بأسلحة المنطق، فإنه زيّنها بوفرة بكل زخارف البلاغة الأغن. كانت القدرة العملية قوية عند بيكون، لكنها لا تقارن بذكائه، الذي في بعض الأحيان يمكن أن يسلب عقله صوابه، أو يستبد بحياته

كلها.

يظهر هذا الأمر كثيرًا في المسرحيات، إن «جون جونت»، الشيخ المسكين المحتضر، الذي استغله كتورية لاسمه، أحد أبرز الأمثلة الحزينة على ذلك، يمكننا أن «نفترض» أن هذا خطأ بيكون، لكننا سنلقي باللوم على شكسبير «ستراتفورد».

لم يكن أحد ليمتلك هذا الخيال القوي للغاية، أو هذه الدرجة من الجموح الذي تمتع هو به في هذا الوقت، فقد كان يعرف متى وأين تنتهي حدود الخيال عند اصطدامها مع الحس الواقعي والسليم.

في الحقيقة، قضى بيكون معظم حياته في عالم الخيال، وسط أشياء لا تقل غرابة عن تلك التي نقرؤها في قصص ألف ليلة وليلة، في أماكن أفخم من قصر «علاء الدين»، ووسط نوافير أروع من مياه «بيارزاد»(19) الذهبية، ووسائل نقل أسرع من حصان «روجيرو»(20)، وأسلحة أكثر قوة من رمح «أستولفو»(21) ومع ذلك، لم يكن هناك في أحلام اليقظة الرائعة أي شيء جامح، لا شيء يتجاوز ما يقبله العقل الرصين.

إن أعظم أعمال بيكون هو الجزء الأول من كتاب «التوجيهات الصحيحة المتعلقة بتفسير الطبيعة»، فكل فقرة من هذا الجزء يَظهر فيها العبقرية والذكاء، ذكاء لا يستخدم إلا لتوضيح الحقيقة، وتقديمها في أحسن شكل، لم يحدث أي كتاب من قبل ثورة عظيمة في طريقة التفكير، ولم يحدث كتاب من قبل ثورة بحيث أثار كل هذا القدر من المواضيع الفكرية، ولم يقدم الكثير من الأحكام المسبقة، ولكنه اجتهد لتقديم رؤى جديدة.

ولكن أكثر ما نعجب به هو تلك القدرة الواسعة لذلك الفكر الذي يستوعب في آنٍ واحد وبدون جهد كل مجالات العلم، كل الماضي والحاضر والمستقبل، وكل أخطاء ألفي سنة، وكل العلامات المشجعة للأزمنة الآتية، وكل الآمال المشرقة

للعصر القادم.

لقد كان لديه موهبة رائعة في تجميع الأفكار، ووضعها في سياق واحد متسق ومترابط.

كانت فصاحته وحدها كفيلة بأن تؤهله لمرتبة عالية في الأدب.

من الواضح أنه امتلك قدرات ذهنية عالية، واستطاع توظيفها في المسرحيات والقصائد، وبدرجة أعلى بكثير وأكثر ثراءً من أي رجل آخر في عصره أو أي عصر سابق، كان عبقريًا لا مثيل له، ومعجزة لا تُقارن. لا وجود لشخص مثله قط، لم يستطِع هذا الكوكب أن يأتي باثنين مثله، وبالطبع لم يكن هناك مثله في جيل واحد، كان بإمكانه كتابة أي شيء موجود في المسرحيات والقصائد، كان بإمكانه أن يكتب هذا:

«قلاعنا التي يكلل السحاب رأسها!

قصورنا الجميلة الشماء والمعابد الوقورة الرزينة!

والكرة الأرضية العظيمة وكل ما ترث!

كأشياء ومثلما خبا وهم احتفالنا الكبير وانتهى بلا أثر

لن يترك الذي يمضي نُثارًا من السحاب!

إنا خلقنا من خيوطٍ تُنسَج الأحلام منها!

هكذا يكلّل النعاس، حياتنا القصيرة الضئيلة!».(22)

كما أنه كان بإمكانه كتابة هذا، لكنه امتنع:

«إنه رفيق جيد، يسوع الذي جاء من أجل التسامح

من أجل هذه الرسالة الرفيقة المغلقة، اسمع:

لا تحفر.. اترك الغبار المدفون هنا بسلام

طوبَى للرجل الذي يحفظ هذه الأحجار

واللعنة على من يزعج عظامي».

عندما يقرأ المرء الأبيات العظيمة عن قلاعنا التي يكلل السحاب رأسها! فليس من المفترض أن يقرأ بعدها مباشرة «إنه رفيق جيد، يسوع الذي جاء من أجل التسامح»، ليس لأنه سيدرك أن الانتقال من الشعر العظيم إلى النثر الضعيف أمر عنيف للغاية وغير مريح، بل لأن ذلك سوف يتسبب في صدمة له، إنك لا تلاحظ أبدًا مدى ابتذال الحصى وعدم شاعريته حتى تمضغ طبقة منه في فطيرة.

الفصل الحادي عشر

هل أحاول إقناع أي شخص بأن شكسبير لم يكتب أعماله التي وضع عليها اسمه؟

آه، حسنًا، هل هذا ظنك بي؟ هل سأكون ساذجًا إلى هذا الحد؟ بعد أن تعرفت إلى الجنس البشري عن قرب لمدة تصل إلى أربعة وسبعين عامًا تقريبًا؟ سيحزنني أن أعرف أن أي شخص يمكن أن يفكر بي بشكل سيئ للغاية، وبصورة مهينة وغير لائقة. لا، لا، أنا أدرك تأثير ذلك عندما يتم تدريب حتى أذكى عقل في عالمنا منذ الطفولة على تصديق خرافة من أي نوع، فلن يكون من الممكن أبدًا لهذا العقل، في نضجه، أن يفحص ويعيد التفكير، بصدق، وعدم انفعال وبشكل واعٍ أي دليل أو أي ظرف يبدو أنه يلقي ظلالًا من الشك على صحة تلك الخرافة، أشك في أنني أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي.

نحن دائمًا نستمد مفاهيمنا حول مختلف الأشياء من الآخرين، وليس من داخلنا، بداية من أكثر الأشياء أهمية، وحتى الأشياء التافهة، دائمًا ما نكوّن وجهة نظرنا من خلال ما يقوله أو يحدده الآخرون، سواء ما يُعتقد أنه محظور أم مباح، أم أهمية السلام، وأمجاد الحرب والجدوى منها، وقوانين الشرف، وقواعد الأخلاق، والموافقة على المبارزة ورفضها، وحتى معتقداتنا بشأن طبيعة القطط، وأفكارنا حول ما إذا كان قتل الحيوانات البرية العاجزة وصيدها أمرًا دنيئًا أو بطوليًا، وتفضيلاتنا في مسألة الأحزاب الدينية والسياسية، وقبولنا أو رفضنا لشكسبير و«آرثر أورتون» والسيدة «إدي».

كل هذه الأشياء دائمًا ما تتكون بداخلنا كنتيجة لما يقوله الآخرين، ونحن لا نستنبط أيًا منها بأنفسنا، هكذا يتم تشكيلنا.

هكذا نُصنع جميعًا، ولا نستطيع أن نفعل شيئًا حيال ذلك، لا يمكننا تغييره.

وكلما وجدنا أنفسنا أمام صنم، تعلمنا ضرورة الإيمان به وحبه وعبادته، وعدم

التشكيك به، لن يكون هناك دليل، مهما كان واضحًا وقويًا، يمكن أن يقنعنا بالتخلي عن ولائنا، أو إعادة النظر في قناعتنا. سواء في الأخلاق أم السلوك أم المعتقدات، فنحن نتلوّن بلون بيئتنا وأفكار مجتمعنا، وهو لون يمكن ضمان زواله، كلما تم تزويدنا بشيء لزج، مثل دمية مصنوعة من القطران في حين أن بداخلها كثيرًا من المجوهرات.. وقد قيل لنا إنه مِن العار وعدم الاحترام أن نكتشف ما بداخل هذه الدمية، حتى لا نقترب من هذه المجوهرات، وعلينا أن نبعد أيدينا المدنسة عنها، نستسلم، لا على مضض، بل برغبة، لأننا نخشى سرًا أنه عند الفحص، سنجد أن المجوهرات من النوع الذي يتم تصنيعه في «نورث آدمز»، «ماساتشوستس».

لا أظن أبدًا أن شهرة شكسبير ستتراجع قبل عام 2209، لأن الناس لا يمكن أن يتخلوا عن إيمانهم به بسرعة، فالناس أيضًا لم يكتشفوا حقيقة هذه الدمية المصنوعة من القطران بسرعة، إنها عملية بطيئة للغاية.

لقد استغرق الأمر آلاف السنين لإقناع جنسنا الرائع -بما في ذلك كل عقل مستنير فيه- أنه لا يوجد شيء اسمه سحر.

Telegram:@mbooks90

واستغرق الأمر عدة آلاف من السنين لإقناع الجنس الرائع نفسه -بما في ذلك كل عقل ذكي ولامع فيه- أنه لا يوجد كائن يُدعى الشيطان.

لقد استغرق الأمر عدة قرون لإزالة مفهوم العذاب الأبدي من هذا الإيمان، الذي يعتقد أنه سيحدث بعد الوفاة تحديدًا، والذي آمن به اتباع الكنيسة البروتستانتية، لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا لإقناع الشيوخ الأمريكيين بالتخلي عن الإيمان بخلود الأطفال غير المعمدين في الجحيم الأبدي، ومحاولة تقبله بصورة أفضل، ويبدو أن إخوتهم الأسكتلنديين سيظلون يحرقون الأطفال في الجحيم الأبدي عندما ينزل شكسبير من عرشه.

نحن الجنس الذي يجب أن يؤمن بالمنطق، لا نستطيع أن نثبت تلك الحقيقة

بالأمثلة المذكورة أعلاه، ولا نستطيع أن نثبتها من خلال «الشهادات» التي جمعها سكان «ستراتفورد» من الخِرَق وبراميل نِشارة الخشب، ولكن هناك كثيرًا من الأشياء الأخرى التي يمكننا إثبات وجهة نظرنا من خلالها، ويمكنني إحصاءها.

فنحن الجنس العقلاني، عندما نجد تلك الآثار التي تشبه آثار السناجب التي كانت تتجول هناك على رمال قرية «ستراتفورد»، نعلم من خلال قدراتنا العقلية أن «هرقل» كان موجودًا هناك.

أشعر أن هذا الصنم سيظل باقيًا لمدة ثلاثة قرون أخرى، هذا التمثال النصفي هناك في كنيسة «ستراتفورد»، التمثال النصفي الثمين، التمثال النصفي الذي لا يقدر بثمن، التمثال النصفي الصامد بوَداعة، التمثال النصفي الثابت، التمثال النصفي الخالي من المشاعر، المنحوت على وجهه شارب أنيق، ذو الوجه المنحوت بدقة، الذي لا يبدو على ملامحه أي اهتمام، ذلك الوجه الذي ينظر بلا عاطفة إلى الزوار، الذين ينظرون له بخشوع ورَهبة، لمدة مائة وخمسين عامًا، وسيظل ينظر بازدراء إلى هؤلاء الزوار لثلاثمائة عام آخرين، بالنظرة نفسها العميقة والهادئة والثابتة، التي لا تتغير.

الفصل الثاني عشر
عدم احترام المقدسات

واحد من أشد العيوب التي أجدها في هؤلاء -هؤلاء- كيف لي أن أسميهم؟ لأنني لن أصفهم بألقاب بذيئة كما يفعلون بنا، فهذا مُخالف لطبيعتي وكرامتي، أقصى ما يمكنني فعله هو أن أطلق عليهم بعض الصفات التي تقلل بعض الشيء من شأنهم، مجرد صفات، لا تعبر عن قسوة ولا إهانة، ولا تعكس أي ضغينة، لو فعلوا ذلك، لكانوا أفضل حالًا.

حسنًا، لننتقل إلى صلب الموضوع، أحد أكثر العيوب المزعجة التي أجدها في هؤلاء «الستراتفورديين»، «الشكسبيريين» -هؤلاء البلطجية، هؤلاء المتفاخرين، هؤلاء البدائيين، هؤلاء المخنثين، هؤلاء المثرثرين، هؤلاء القراصنة واللصوص، هؤلاء المستبِدّين الذين يحاولون فرض آرائهم بالقوة- هي روح عدم احترام المقدسات، يظهر ذلك في كل كلمة ينطقون بها عندما يتحدثون عنا.

أشكر الله أنني لا أملك شيئًا من هذه الروح الوضيعة، عندما يكون هناك شيء مقدس بالنسبة لي، من المستحيل أن أدافع عنه بأسلوب وقح، فأنا لا أتذكر أي موقف كنت فيه غير محترم، باستثناء المرات التي كنت أتحدث فيها عن الأشياء التي يقدسها الآخرين.

هل أنا محق؟

أعتقد ذلك، لكنني لا أطلب من أحد أن يصدق ما أقوله دون دليل، لا، بل يجب أن نرجع إلى القاموس، دع القاموس يُقرر.

هذا هو تعريف الكلمة أو المصطلح وفقًا للقاموس:

عدم احترام المقدسات: عدم إظهار التقدير تجاه الله.. والأشياء المقدسة.

ماذا يقول الهندوسي؟

يقول هذا صحيح، يقول إن عدم الاحترام، هو عدم احترام لـ«فيشنو» و«براهما» و«كريشنا» وآلهته الأخرى وأبقاره المقدسة ومعابده والأشياء الموجودة بداخلها، إنه يؤيد التعريف، كما ترى، وهناك 300.000.000 هندوسي أو ما يعادلهم يتّفقون معه.

ظنّ القاموس بذكاءٍ قاطعٍ أنه يمكنه حصر عدم التبجيل تجاه إلهنا، وأشيائنا المقدسة، لكن تلك الفكرة البارعة والمخادعة فشلت إلى حدٍ ما، فبواسطة عملية بسيطة وهي كتابة الحروف الأولى من أسماء آلهته بحروف كبيرة مثلما فعلنا، يستولي الهندوسي على التعريف، وبالتالي يحصره على طوائفه الخاصة، مما يجبرنا على احترام آلهته ومقدساته وليس أي شيء آخر، لا يمكننا قول كلمة واحدة، لأنه يستدل بقاموسنا الخاص، وقراره هو القرار النهائي.

هذا القانون، تكون أبسط مصطلحاته كما يلي:

1 - كل ما هو مقدس بالنسبة للمسيحي يجب أن يحظى باحترام الجميع.

2 - كل ما هو مقدس عند الهندوس يجب أن يحظى باحترام الجميع.

3 - وبالتالي، ونتيجة لكل ما سبق، منطقيًا ومما لا شك فيه، فإن كل ما هو مقدس بالنسبة لي يجب أن يحترمه الجميع.

الآن، ما يزعجني هو أن سكان الكهوف هؤلاء، الذين يعيشون في صقيع أكثر من الذي يعيش فيه سكان موسكو، والعصابات الإجرامية، والقراصنة، يحاولون أيضًا التجمع وتقاسم فوائد هذا القانون، وإجبار الجميع على تبجيل شكسبير الخاص بهم واعتباره مقدسًا.

لا يمكننا الحصول على هذا الاحترام تجاه كل فكرة أو اعتقاد، لأن هناك الكثير والكثير من الأفكار والمعتقدات بالفعل، إذا واصلت توسيع الامتياز ونشره وتضخيمه، فسيتم الاعتراف في الوقت الحاضر، بأن كل شيء وفكرة مقدسة

عند كل إنسان هي فكرة لا بد وأن تحترم، وسيتّعيّن على بقية الجنس البشري أن يحترموا ويتقبلوا تلك الأفكار الخاصة بكل شخص، أن يفعلوا ذلك بتواضع، وإما سيعانوا من ويلات ذلك.

يمكن أن يحدث ذلك بالتأكيد، وعندما يحدث، فسيتم اعتبار كلمة «عدم احترام المقدسات» أكثر الكلمات التي لا معنى لها، والأكثر حماقة، وغرورًا، ووقاحة، وسذاجة، ستبدو ككلمة دكتاتورية وسُلْطَوِية تفرض نفسها دون أي مبرر في القاموس اللغوي، وسيقول الناس:

«لمن هذه الكلمة، وما الآلهة التي أعبدها.. وما الأشياء المقدسة بالنسبة لي إذن؟ من له الحق في الإملاء على ضميري، ومن أين جاء بهذا الحق؟».

ولا يمكننا أن نسمح لتلك الكارثة أن تحل علينا، يجب أن ننقذ الكلمة من هذا الدمار، هناك طريقة واحدة للقيام بذلك؛ وهي وقف انتشار هذا الامتياز، وحصره بشكل صارم في حدوده الحالية، أي احترام جميع الطوائف المسيحية، وجميع الطوائف الهندوسية، واحترام أفكاري بالتأكيد، وبعد ذلك لا نحتاج إلى المزيد.

كان سيُفضّل لو اقتصر الامتياز عليّ وحدي، أؤمن بذلك لأني أنتمي للطائفة الوحيدة التي تعرف كيف تستخدمه برفقٍ ولطفٍ ورحمةٍ وبحيادية، تفتقر الطوائف الأخرى لصفة ضبط النفس؛ حيث تقول الكنيسة الكاثوليكية أمورًا لا تُظهر التبجيل والاحترام تجاه أمور تعتبر مقدسة بالنسبة للبروتستانت، وتردّ الكنيسة البروتستانتية بالمثل حول الأمور التي تتعلق بطقس الاعتراف وغيرها من الأشياء التي يقدسها الكاثوليك، ثم يتحول كلاهما إلى «توماس بين»(23) ويتهمانه بأنه يتجاهل معتقداتهما وأنه لا يظهر الاحترام تجاه أفكارهما، كل هذا مؤسفٌ، لأنه يجعل من الصعب على الطلاب ذوي العقلية المتدنية معرفة: ما عدم الاحترام الحقيقي؟

من المؤكد أنه سيكون أفضل بكثير للجميع إذا سُحب امتياز احترام الأشخاص

الذين لا يحترمون غيرهم، وأن ينضموا في هذا الصف الطويل الذي يبدو وكأنه بلا نهاية، والذي تقف فيه جميع الطوائف والمعتقدات والأفكار، عدا أنا. عندها لن يكون هناك المزيد من المشاحنات، ولا المزيد من تبادل الصفات البذيئة، ولا المزيد من حرقة القلب.

عندها لن يكون هناك شيء مقدس في هذا الجدل الدائر بين «بيكون وشكسبير»، وسيكون الشيء المقدس هو الشيء الذي أعتبره أنا مقدسًا، وهذا سوف يبسط الأمر برمته، وسوف تتوقف المشكلات.

لن يكون هناك استخفاف أو تجاهل بعد الآن، لأنني لن أسمح بذلك. المرة الأولى التي يتهمني فيها هؤلاء المجرمون بعدم الاحترام لأنني أطلقت على أسطورتهم في «ستراتفورد» أنه مثل «آرثر- أورتون – ماري - بيكر طومسون - إيدي - لويس السابع - المقنع الخرساني مدعي الألوهية» ستكون الأخيرة، بعد أن تعلمت من الأساليب التي وجدتها محاكم التفتيش فعالة في القضاء على المجرمين والمختلفين معها قبل ذلك، سأعرف كيف أهدّئهم.

الفصل الثالث عشر

أليس غريبًا، عندما تفكر في الأمر، أنك تستطيع أن تعد قائمة بجميع مشاهير الإنجليز والأيرلنديين والأسكتلنديين في العصر الحديث -حتى تعود إلى عصر «تيودور الأول»- قائمة تضم خمسمائة اسم، أليس كذلك؟ ويمكنك الرجوع إلى كتب التاريخ والسير الذاتية والموسوعات ومعرفة تفاصيل حياة كل واحد منهم.

كل واحد منهم باستثناء واحد فقط، هو أكثرهم شهرة، والأكثر تألقًا بينهم جميعًا، وهو شكسبير!

يمكنك الوصول إلى تفاصيل حياة جميع رجال الدين المشهورين في القائمة، جميع التراجيديين، والكوميديين، والمغنين، والراقصين، الخطباء والواعظين، القضاة، المحامين، الشعراء، المسرحيين، المؤرخين، وكتاب السير الذاتية، والمحررين، المخترعين، والمبدعين، المصلحين، رجال الدولة، الجنرالات، الأمراء، المكتشفين، الملاكمين، القتلة، القراصنة، المتآمرين، فرسان السباق، المحتالين، البخلاء، المتلاعبين، المستكشفين، المغامرين برًا وبحرًا، المصرفيين، الممولين، الفلكيين، علماء الطبيعة، أصحاب الدعاوى، الدجالين، الكيميائيين، علماء الأحياء، الجيولوجيين، علماء اللغة، رؤساء الجامعات والأساتذة، المهندسين، والمهندسين المعماريين، الرسامين، النحاتين، السياسيين، المحرضين، المتمردين، الثوار، الوطنيين، والديماجوجيون، المهرجين، الطباخين، المعتوهين، الفلاسفة، اللصوص، قطاع الطرق، الصحفيين، الأطباء، الجراحين.

يمكنك التعمق في تفاصيل تاريخ حياة كل هؤلاء باستثناء واحد، واحد فقط، أكثر المعجزات غير العادية والأكثر شهرة من بين الجميع، شكسبير!

ويمكنك أن تضيف إلى القائمة ألف شخص من المشاهير الذين قدمتهم بقية الدول المسيحية في القرون الأربعة الماضية، ويمكنك أيضًا معرفة تاريخ حياة كل هؤلاء الأشخاص.

سيكون لديك حينئذٍ 1500 من المشاهير المدرجين بتلك القائمة، ويمكنك تتبع التاريخ الصحيح لحياة كل منهم.

باستثناء قصة واحدة فقط، لشخص واحد، شكسبير! لا يمكنك معرفة أي شيء عنه، ولو حتى شيء ذي أهمية طفيفة، أو شيء يستحق عناء أن تحتفظ به في ذاكرتك، لا شيء يشير ولو حتى من بعيد إلى أنه كان في أي يوم من الأيام أكثر من مجرد شخص عادي، مديرًا، وممثلًا مبتدئًا، وتاجرًا صغيرًا في قرية صغيرة لم تعتبره شخصًا ذا أهمية، ونسيته تمامًا قبل أن يبرد في قبره.

يمكننا الرجوع إلى السجلات والكتب لمعرفة تاريخ حياة المشاهير، وحتى معرفة كل حصان سباق شهير في العصر الحديث، ولكن ليس لمعرفة شكسبير! هناك عديد من الأسباب، وقد تم تقديمها بواسطة عربات محملة بكثير من الظنون والتخمينات، قدمها هؤلاء الذين يسكنون الكهوف، ولكن هناك سبب واحد يساوي كل الأسباب الأخرى مجتمعة، وهو كافٍ تمامًا في حد ذاته، وهو أن شكسبير لم يكن لديه أي تاريخ ليسجله، أو شيء يستحق أن يكتب، لا توجد طريقة لفهم هذه الحقيقة القاتلة، ولم يتم اكتشاف أي طريقة عاقلة حتى الآن تُمكِننا من استيعاب أهميتها الهائلة.

من الواضح تمامًا أن أهمية هذا الأمر -بالنسبة لأي شخص باستثناء هؤلاء الأشرار «ولا أقصد وصفهم بشيء غير لطيف»- هي أن شكسبير لم يكن يتمتع بأي شهرة وهو لم يزل على قيد الحياة، ولم يَنَل هذه الشّهرة إلا بعد موته بجيلين أو ثلاثة.

وقد حظيت المسرحيات بشهرة كبيرة آنذاك، وإذا كان هو من كتبها، فيبدو من المؤسف أن العالم لم يكتشف ذلك، كان عليه أن يوضح أنه هو المؤلّف، وليس مجرد اسم مستعار يختبئ خلفه رجل آخر، ولو أنه كان أقل حرصًا على عظامه في القبر، ومهتمًا أكثر منها بالأعمال التي قدّمها، لكان ذلك أفضل لسمعته ككاتب ومؤلف، ورحمةً بنا، فالعظام لم تكن مُهِمة، فهي في نهاية الأمر سوف تتحلّل،

سوف تتحول إلى مجرد تراب، لكن الأعمال ستبقى حتى تغرب الشمس لآخر مرة.

مارك توين

ملاحظة

٢٥ مارس

منذ حوالي شهرين، كنت أقوم بتوضيح بعض المفاهيم الخاصة بي فيما يتعلق بالجدل حول بيكون وعلاقته بشكسبير في سيرتي الذاتية، ثم وجدتها فرصة للتعبير عن الرأي القائل بأن شكسبير ستراتفورد لم يكن شخصية عامة بارزة أو مشهورة خلال حياته، بل كان مجرد شخصية غامضة تمامًا ولا يلتفت إليها أحد، لا يقتصر هذا التجاهل على لندن العظيمة، بل يشمل أيضًا القرية الصغيرة التي وُلد وعاش فيها ربع قرن ومات ودفن فيها.

وقد جادلت بأنه لو كان شخصية بارزة على الإطلاق، لظل القرويون المسنون يحكون عنه كثيرًا لسنوات طويلة بعد وفاته، بدلًا من عجزهم عن تقديم أي شيء يخص حياة شكسبير للسائلين.

كنت وما زلت أعتقد أنه لو كان مشهورًا، فإن شهرته كانت ستدوم ما دامت استمرت شهرتي في قريتي في «ميزوري»، إنها حجة جيدة، حجة قوية للغاية، وحجة صعبة حتى على أكثر مؤيدي شكسبير ستراتفورد موهبة وابتكارًا وإقناعًا أن يتجاوزها أو يجدوا لها تفسيرًا.

وصل لي اليوم مقال في صحيفة «هانيبال كورير بوست» يؤكد ادعائي بأن الشخص المشهور حقًا لا يمكن نسيانه في قريته خلال فترة قصيرة لا تتجاوز الستين عامًا، سأقتطف منه مقطعًا:

«قد تكون مدينة «هانيبال»، كمكان، ملزمة بالإجابة وتبرير كثير من الخطايا، ولكن هذه الخطايا الكثيرة، لا تتضمن جحودًا بالعرفان والجميل، فأهلها أيضًا لا ينسون تبجيل العظماء التي أنجبتهم، ومع مرور السنين يزداد تقدير سكان المدينة واحترامهم لابنها الأعظم «مارك توين»، أو كما يسميه بعضهم من غير المتعلمين والذين لا يعرفون القراءة والكتابة، «صمويل لانجورن كليمنز»، فهي

المدينة التي جعلها مشهورة، والمدينة التي جعلته مشهورًا.

يرتبط اسمه بكل مبنى قديم يتم هدمه لإفساح المجال أمام المباني الحديثة التي تتطلبها مدينة سريعة النمو تسير في طريق الحداثة، وهناك كثير من الاحتمالات على وجوده أو مروره على كل تَلٍّ أو كهف قد يكون تجول فوقه أو عبر من خلاله أو مر من أمامه، بينما أصبحت العديد من المعالم التي نسجها في قصصه، مثل «تلة العطلة»، أو «جزيرة جاكسون»، أو «كهف مارك توين»، الآن آثارًا بسبب موهبته، يسر «هانيبال» أن تنتهز أي فرصة لتكريمه كما كرمها.

إذن فقد حدث أن الأصدقاء القدامى، الذين ذهبوا إلى المدرسة مع «مارك» أو كانوا معه في بعض مغامراته المعتادة قد تم تكريمهم، بالتفاف كثير من الجماهير حولهم كلما كانوا في مزاج جيد، وصحة جيدة، وذاكرة ممتازة، لكي يعرفوا منهم ويتكرموا بسرد قصة قربهم من الصبي العادي، الذي أصبح ساخرًا استثنائيًا للغاية، وكل فِعل له كفتى يُنظر إليه الآن على أنه مؤشر لما سيأتي.

بالمثل «العمة بيكي» والسيدة «كليمنز»، يمكنهما الآن أن يرَيَا أن «مارك» لم يكن يحظى بالتقدير الذي يستحقه عندما كان يعيش هنا، وأن الأشياء التي فعلها كصبي وتعرض للجلد لقيامه بها لم تكن سيئة على الإطلاق، لذلك لم يترددوا في الإشارة إلى الأشياء السيئة التي فعلها، وكذلك الأشياء الجيدة في محاولاتهم لأن يكونوا جزءًا من «قصة مارك توين»، حيث تُرى جميع الحوادث في ضوء شهرته الحالية، حتى أصبحت مكانة «توين» كبيرة بالفعل وتنمو بالتوازي مع تناقص «الأصدقاء القدامى» وإعادة رواية القصص على يد أحفادهم للمرة الثانية والثالثة.

Telegram:@mbooks90

كونه شابًا في الثالثة والسبعين ويعيش في فيلا بدلًا من منزل، فهو هدف عادل، ودعه يدمج أو يحمي حقوق طبع ونشر أو يسجل ملكية أعماله كما يريد، فهناك بعض «أعماله» التي سيتم حرقها، وسيتصاعد الدخان من مداخن «هانيبال» طالما تجمّع ذوي اللحى البيضاء حول النار وبدءوا حديثهم بـ«لقد

سمعت الأب يخبر..» أو ربما «ذات مرة عندما كنت..».

السيدة «كليمنز» التي تمت الإشارة إليها هي أمي، كانت أمي..

وهنا مُقتطف آخر من عدد يعود لعشرين يومًا مضت من صحيفة «هانيبال»، توفيت الآنسة «بيكا بلانكنشيب» في منزل السيد «ويليام ديكاسون»، 408 شارع «روك»، الساعة 2:30 بعد ظهر أمس عن عمر يناهز 72 عامًا، كانت المتوفاة أخت «هاكلبيري فين»، إحدى الشخصيات الشهيرة في «مغامرات توم سوير» لمارك توين، وكانت عضوًا في عائلة «ديكاسون» -مدبرة المنزل- لما يقرب من خمسة وأربعين عامًا، وكانت سيدة تحظى باحترام كبير، خلال السنوات الثماني الماضية، كانت تعاني من مرض عضال، لكن السيد «ديكاسون» وعائلته اعتنوا بها كما لو كانت من أقاربهم المقربين، كانت من رعايا كنيسة «بارك» الميثودية وامرأة مسيحية.

أتذكرها جيدًا، صورتها محفورة في ذهني، واضحة وحادة وقوية، كما كانت منذ ثلاثة وستين عامًا، كانت في ذلك الوقت تبلغ التاسعة من عمرها، وكنت أنا في الحادية عشرة تقريبًا.

أتذكر أين كانت تقف، وكيف كانت تبدو، ولا يزال بإمكاني رؤية قدميها العاريتين، وشعرها دون تلك القماشة التي يلفها ويضعها الخدم على رؤوسهم، ووجهها البني، وفستانها القصير المصنوع من قماش الكتان الخفيف، كانت تبكي، لقد نسيت منذ زمن طويل سبب ذلك.

لكن لا شك أن الدموع هي التي حافظت على الصورة بالنسبة لي، يمكنني القول إنها كانت طفلة مهذبة، لقد عرفتني منذ حوالي سبعين عامًا. هل تنساني مع مرور الوقت؟ لا أعتقد ذلك، لو أنها عاشت في «ستراتفورد» في زمن شكسبير، هل كانت ستنساه؟

نعم، لأنه لم يكن مشهورًا قطُّ خلال حياته، وكان مغمورًا تمامًا في

«ستراتفورد»، ولن يكون هناك أي داعٍ لتذكره بعد وفاته بأسبوع.

قبل جيلَين، كان كل من «آنجون جو» و«جيمي فين» و«الجنرال جاينز» أشرارًا بارزين وغالبًا ما يتمادون في سوء تصرفهم في «هانيبال»، يتذكرهم كثير من ذوي الشعر الرمادي هناك حتى يومنا هذا ويمكنهم أن يحدثوك عنهم، ألم يكن من الغريب أن يترك اثنان من «سكّيري البلدة» ومحتال، في قرية نائية، شهرة أكبر بمئة مرة، وأكثر وضوحًا في كثير من المسائل والحقائق المُحدّدة من شهرة شكسبير التي تركها وراءه في القرية التي عاش فيها نصف عمره؟

مارك توين

---

(1)«العلم والصحة، مع مفتاح الكتاب المقدس»: هو كتاب للمرشدة الدينية الأمريكية "ماري بيكر إيدي"، وصفته الكاتبة بأنه أهم عمل لها، ويتناول الكتاب موضوع الشفاء من بعض الأمراض وفقًا للكتاب المقدس المسيحي، ومنذ صدوره في 1857 بيع الكتاب ملايين النسخ حول العالم. «المترجم».

https://www.christianscience.com/the-christian-science-pastor/science-and-health

(2)المترجم: https://www.britannica.com/biography/Lambert-Simnel-English-pretender

https://www.britannica.com/biography/Perkin-Warbeck-English-pretender

(3)المترجم: https://www.britannica.com/biography/Delia-Salter-Bacon

(4)المترجم: https://www.shakespeare.org.uk/explore-shakespeare/podcasts/60-minutes-shakespeare/sir-francis-bacon-and-shakespeares/-authorship

(5)المترجم: https://www.merriam-webster.com/dictionary/rice%20Christian

(6)يُعتقد أن اسم "آن واتيلي": هو خطأ كتابي ناتج عن إهمال الموظف الذي كتب إذن الزواج، ويرى بعض الباحثين أن شكسبير أحب "آن واتيلي"، لكنه تزوج من "هاثاواي"، ويرى البعض أن إذن الموافقة على الزواج الأول يعود لشخصين مختلفين ولا يمت بصلة لشكسبير و"آن هاثاواي".

(7)هي الأراضي الموجودة حول دلتا أنهار "الراين" و"شخيلت" و"الميز" وتضم حاليًا بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ، وأجزاء من شمال فرنسا، وغربي ألمانيا.

(8)هي مجموعة مسرحيات لشكسبير، يصل عددهم إلى تسعة عشر أو ثماني عشر مسرحية، نشروا بعد وفاته. https://www.theguardian.com/books/2023/apr/23/my-eyes-filled-with-tears-my-voice-shook-simon-callow-on-coming-face-to-face-with-shakespeares-first-folio «المترجم».

(9)لقب كان يُعطَى لمن يعمل في الطباعة، ويضع الحروف الرصاصية داخل المكينة. «المترجم».

(10)المترجم.

(11) المترجم.

(12)التعدين الجيبي: يتم من خلال وضع عينة من الطين من بقعة أو مساحة صغيرة في أحد التلال في وعاء، بحثًا عن عروق سطحية معزولة من الذهب، وعند إيجاد الذهب، تؤخذ عينة أخرى من مكان قريب، حتى يتم تحديد مساحة صغيرة لبدء عمليات الحفر والتنقيب عن الذهب، اشتهرت هذه الطريقة في روايات «مارك توين». «المترجم».

(13)المترجم

(14)المترجم

(15)«لانسلوت» أسطورة في الأدب الأوروبي، وهو فارس شهير في قصص الملوك الأسطورية. يُعتبر لانسلوت واحد من أبرز الشخصيات في قصة الملك «آرثر». والمقصود هنا أن بيكون كان معروفًا وشهيرًا لدرجة كافية كهذه الأسطورة. «المترجم».

(16)هو قانون إنجليزي صادر في عام 1608، وينص على أن الطفل المولود في أسكتلندا، بعد اتحاد التاجين تحت حكم الملك جيمس السادس في عام 1603، يعتبر بموجب القانون العام من الرعايا الإنجليز ويحق له الاستفادة من مزايا القانون الإنجليزي. «المترجم».

(17)«Treatise De Argumentis Scientiarum» «المترجم».

(18)أحد قصص ألف ليلة وليلة. «المترجم»

(19)«بيارزاد»: هي إحدى شخصيات قصة «الشقيقتان اللتان تغاران من أصغرهما» التي جمعها المستشرق الفرنسي «أنطوان جالان» في ترجمته الفرنسية لـ«ألف ليلة وليلة». «المترجم».

(20)«روجيرو»: هو أحد الأبطال البارزين في أشهر الملاحم الرومانسية الإيطالية؛ «أورلاندو إيناموراتو» التي ألّفها «ماتيو ماريا بوياردو» و«أورلاندو فوريوسو» لمؤلفها «لودوفيكو أريوستو»، ظهر «روجيرو» في الأصل في ملحمة «أسبرمونت» الفرنسية في القرن الثاني عشر. «المترجم».

(21)«أستولفو»: هو شخصية خيالية من شخصيات في المجموعة الأدبية «مسألة فرنسا»، كان أول ظهور رئيسي له في القصيدة الملحمية الفرنسية الإيطالية المجهولة في أوائل القرن الرابع عشر «الاستيلاء على بامبلونا». «المترجم».

(22)الفصل الرابع، المشهد الأول، مسرحية «العاصفة»، ص138، ترجمة محمد عناني، «مؤسسة هنداوي». «المترجم».

(23)«توماس بين» «1737- 1809»، هو ثوري وناشط ومنظر سياسي ومفكر أمريكي من أبرز فلاسفة عصر التنوير في الولايات المتحدة ومن الآباء المؤسسين للولايات المتحدة.